عادات القرآن الأسلوبية

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

عادات القرآن الأسلوبية

دراسة تطبيقية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه

إعداد

راشد بن حمود الثنيان

إشراف

فضيلة الدكتور: محمد بن سريع السريع

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين

المشرف المساعد

فضيلة الدكتور: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة في كلية اللغة العربية

١٤٣٢هـ

سحب ثاني/ عادات القرآن الأسلوبية/ ٢٠١١/١١/١٥ | c:/3d/New-2011/Adat-koran.3d [17x24]

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

وتتضمن:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

هدف البحث.

الدراسات السابقة.

الصعوبات في البحث.

خطة البحث.

منهجي في كتابة البحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد(١):

فإن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبُه، ولا تنفد نجائبُه، ولا يشبع منه العلماء، وهو أشرف ما صرف إليه اللبيب نفسَه، وأمضى فيه يومَه وأمسَه، ولم أزلْ أبحث في لججِ بحاره، وأخوض في موجِ غماره؛ لاستخراج شيء من مكنون كنوزه وأسراره، إلى أن تجمع لي بحمد الله من ذلك ما تُرجَى بركاتُه، وتُحمد غُدواته ورَوحاتُه.

ولا جرم أن لغةَ القرآن موضعُ احتفاءِ العلماءِ على اختلاف تخصصاتهم،

(١) هذه خطبة الحاجة، أخرجها الإمام أحمد ٦/ ٢٦٢، ٢٦٤ (٣٧٢٠، ٣٧٢١)، وأبو داود ٢/ ٢٣٨ (٢١١٨)، والترمذي ٣/ ٤٠٤ (١١٠٥)، والحاكم ٢/ ١٩٩، وقد أفردها الألباني في رسالة خاصة باسم: «خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه» وقد جمع ألفاظها، وطرقها، وبيَّن من خرجها، ومن الخير للمسلم أن يعود لسانه قولها، وقلمه كتابتها بين يدي كلامه.

وتباين أعصارهم وأمصارهم، وبيانُه محورُ كثير من الدراسات والأبحاث المتطلعة إلى كشف إعجازه، والوقوف على أسراره وأغواره.

وكتاب الله المبين إعجازُه الكبير في فصاحته، وعظيم سبكه، وبديع بلاغته، وإن في آيه لحلاوة، وإن على كلمه لطلاوة، ولو أراد متفاصح أن يُبَدِّل كلمة مكان كلمة لما وجد ما يقوم مقامَها، ولتبدَّت له لفظة القرآن أحسنَ من أختها.

ولهذا ظهر اهتمام المفسرين بهذا النوع من علوم القرآن متمثلاً في استقراء أساليبه سواءً الألفاظُ أو الجمل أو التراكيب أو غيرها.

وبعد انتهائي من دراستي المنهجية لمرحلة الدكتوراه، بحثت عن موضوع ذي عمق وجدَّة وابتكار وإسهام فاعل لإنماء المعرفة في التخصص، حتى أنعم الله عليَّ إذْ وقع نظري على مصطلح ردده جمع من الأئمة والعلماء المبرّزين في مختلف العصور ألا وهو: (عادات القرآن).

ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «فالخطاب بصيغة الجمع قد تنوعت عادة القران فيها»[(١)].

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته»[(٢)].

والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ يقول ضمن رده على العراقي: «ولكن من عادة القرآن مراعاة ما تقتضيه الحال، فيطنب في محل الإطناب، ويوجز في محل الإيجاز؛ والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال»[(٣)].

بل إن ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أكد على المفسر تعلمه والعناية به فقال: «يحق على المفسر أن يعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه»[(٤)].

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٤/ ٢٠٧.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ٨١.
(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٢/ ٢٢٩.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.

وجعله في مقدمات تفسيره عنواناً لمبحث مستقل في المقدمة العاشرة من تفسيره(١).

ولهؤلاء العلماء وغيرهم سلف في ذلك على اختلاف عباراتهم في تحديد هذا المصطلح؛ إذ بعضهم يُعبر عنه بذكر أمثلة عليه، كما هي عادة السلف الأوائل؛ حيث لم يكونوا يُعْنَون بالحدود والتعريفات.

وهذه العاداتُ متفرقةٌ مبثوثةٌ في كتب التفسير، وغيرها من المؤلفات التي تُشير إلى هذا الموضوع، وتُرشد إلى معالِمِه، وتُلمح إلى قدرِه.

ولا ريب أن جمعَ ما تناثر في هذا الموضوع مما يعين على تدبرِ القرآن وعقْلِه وخدمةِ علومِه، لا سيما أن هذا الموضوع لم يُبحَث ولم يُجمَع فيما أعلم؛ بل هو بِكْر يحتاج إلى جمع ودراسة، وبعد استخارة واستشارة، عقدت العزم على جمع عادات القرآن الكريم في أسلوبه، ودراستها دراسة تطبيقية، ورغبت أن يكون هذا البحث حاملاً العنوان التالي:

(عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية)

سائلاً المولى جل وعلا أن يسدد لساني وبناني وبياني،
وأن يغفر لي خطئي وزللي، إنه سميع قريب.

❐ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تظهر أهمية الموضوع في أمور، منها:

١ ـ أن الاطلاع على عادات القرآن ودراستها يفتح للدارس آفاقاً كثيرة للفهم والتدبر والتفكر، ويعين على معرفة ما في القرآن من معان وأسرار.

٢ ـ أن البحث في هذا الموضوع يعين المفسر على تفسير القرآن، ويختصر عليه جهداً ووقتاً، وذلك من خلال فهم عاداته في أساليبه.

٣ ـ أن العلم بعاداتٍ مطردةٍ في القرآن يُعد من أوجه الترجيح عند اختلاف المفسرين، مما يعطي أهمية كبرى لهذا الموضوع.

---

(١) المرجع السابق ١/ ١٢٤.

٣ ـ أنه يجمع شتات ما تفرق من هذه العادات المهمة المنثورة في كتب التفسير وغيرها؛ ويتناولها بالبحث والاستقراء والبيان.

٤ ـ أنه موضوع يتناول جانباً مهماً من جوانب علوم القرآن، ولم أطلع على من أفرده بالتأليف.

❐ هدف البحث:

استقراء عادات القرآن الكريم الأسلوبية ودراستها، وإبراز شيء من جهود العلماء في بيانها.

❐ الدراسات السابقة:

بعد البحث في الدراسات السابقة التي تطرقت لهذا الموضوع، لم أقف على من أفرد التأليف في عادات القرآن الأسلوبية مما يضفي على هذه الرسالة شيئاً من الجدَّة والابتكار.

أما المؤلفات التي لها صلة بالموضوع فمن ذلك ما يلي:

١ ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت١٠٩٤هـ) رتبه على حروف المعجم وفي بداية كل فصل يذكر كليات في ألفاظ القرآن وغيره، دون جمع ودراسة بل على طريقة المعاجم اللغوية، والبحث في عادات القرآن أعم وأشمل.

٢ ـ الكليات الشرعية في القرآن الكريم، للدكتور: الحسن حريقي، تناول فيه ثماني كليات شرعية من خلال ثماني آيات، متعلقة بالاعتقاد ومقاصد الشرع والطاعة والجزاء، وبيَّن مظانها وشواهدها وما يتفرع منها.

وهذا بحث في موضوعات كلِّيةٍ معنوية، ولم يتطرق لعادات القرآن الأسلوبية التي سأبحثها في هذه الرسالة بمشيئة الله.

٣ ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للدكتور: محمد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ اللَّهُ الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهو مطبوع في أحد عشر مجلداً في دار الحديث بالقاهرة، قال في مقدمته: «استهدفت أن

أصنع للقرآن الكريم معجماً نحوياً صرفياً، يكون مرجعاً لدارس النحو؛ فيستطيع أن يعرف متى أراد: أوَقَع مثل هذا الأسلوب في القرآن أم لا؟»[١].

وهو كما قال، القسم الأول: الحروف والأدوات، والقسم الثاني: دراسة الجانب الصرفي، والقسم الثالث: دراسة الجانب النحوي.

ففيه وضع الشواهد القرآنية على أبواب النحو والصرف ليُحْتكم إليها.

لكن هذا البحث يدرس العادات الأسلوبية في القرآن دراسة تطبيقية من حيث اختيار الحروف والألفاظ ومناسبتها للسياق، والعادة في نيابة بعضها عن بعض، وعادة القرآن في الذكر والحذف، والإظهار والإضمار، والإيجاز والإطناب، وعادات القرآن من ناحية تراكيبه في قصصه وخطاباته، ونحو ذلك.

٤ ـ كليات الألفاظ في التفسير دراسة نظرية تطبيقية، للأستاذ: بريك بن سعيد القرني، في رسالة ماجستير، مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كلية أصول الدين.

قد جمع الباحث فيها ثمانية وخمسين لفظاً؛ منها خمس وثلاثون مطردة، وثلاث وعشرون أغلبية، وهي كليات في معنى اللفظ القرآني، فقد خُصِّص لدراسة الألفاظ فقط، والذي هو مطلب واحد من هذا البحث، فلم يتطرق في بحثه لأساليب القرآن بأنواعها في الألفاظ أو الجمل، أو التراكيب، أو المعاني، أو الأسلوب البلاغي والقصصي، وعادة القرآن في الحوار والخطاب، وعادة القرآن في استعمال الحروف والكلمات، ونحو ذلك.

وبهذا تبين أن هذا الموضوع لم يفرد بالتأليف فيما اطلعت عليه، فزاد ذلك من الرغبة في البحث فيه.

❐ الصعوبات التي واجهتني في البحث:

من أهم الصعوبات التي واجهتني في البحث:

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن ١/ ٩.

١ ـ عدم اتضاح محددات البحث ابتداءً، وعدم توفر دراسات سابقة.

٢ ـ تعلق الموضوع بشكل دقيق بعدد من العلوم خارج التخصص: كعلم الأصول، والقواعد الفقهية، وأصول اللغة والبلاغة؛ مما أحتاج معه إلى دراسة هذه العلوم بشكل تخصصي.

٣ ـ اعتماد البحث بشكل كامل على الاستقراء، ويكتنف ذلك: تعرض الاستقراء لعدم الاستقصاء، وعدم الوصول إلى الكمال.

٤ ـ سعة بعض العادات مما يحتاج إلى رسالة مستقلة، فأجد الصعوبة الشديدة في اختصار العادة بأمثلتها، وأحتاج إلى وقت أطول في تحريرها.

❐ خطة البحث:

ـ المقدمة وفيها:

ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

ـ هدف البحث.

ـ الدراسات السابقة.

ـ خطة البحث.

ـ منهجي في كتابة البحث.

ـ التمهيد وفيه:

ـ بيان مصطلح (عادات القرآن) إفراداً وتركيباً.

ـ ظهور مصطلح (عادات القرآن) وعناية العلماء به.

ـ منزلة عادات القرآن في التفسير.

الباب الأول: عادات القرآن في حروفه وألفاظه، وفيه:

الفصل الأول: عادات القرآن في الحروف، وفيه:

المبحث الأول: اختيار الحروف، وفيه:

المطلب الأول: اختيار الحرف المناسب للسياق.

المطلب الثاني: ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة.

المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لحروف الفواصل.

المبحث الثاني: نيابة بعض الحروف عن بعض، وفيه:
المطلب الأول: نيابة حروف الجر عن بعض.
المطلب الثاني: نيابة حروف النداء عن بعض.
المطلب الثالث: نيابة حروف العطف عن بعض.
المبحث الثالث: التأكيد ببعض الحروف أو حذفها، وفيه:
المطلب الأول: التأكيد ببعض حروف المعاني.
المطلب الثاني: تقوية المعنى ببعض الحروف.
المطلب الثالث: حذف بعض الحروف.
الفصل الثاني: عادات القرآن في الألفاظ، وفيه:
المبحث الأول: اختيار اللفظ المناسب، وفيه:
المطلب الأول: اختيار اللفظ المناسب للسياق.
المطلب الثاني: اختيار الألفاظ الجامعة.
المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل.
المبحث الثاني: استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص، وفيه:
المطلب الأول: تخصيص اللفظ بمعنى.
المطلب الثاني: استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة فقط.
المطلب الثالث: استعمال الألفاظ اللائقة بالقرآن.
المبحث الثالث: نيابة بعض الألفاظ عن بعض، وفيه:
المطلب الأول: وضع الماضي موضع المستقبل.
المطلب الثاني: تذكير المؤنث.
المطلب الثالث: استعمال لفظين مختلفين في معنى واحد.
الباب الثاني: عادات القرآن في الحذف والإضمار والإيجاز وضدها، وفيه:
الفصل الأول: عادة القرآن في الحذف والذكر، وفيه:
تمهيد:
المبحث الأول: حذف المبتدأ أو الخبر، وفيه:
المطلب الأول: حذف المبتدأ.

المطلب الثاني: حذف الخبر.

المبحث الثاني: حذف الفعل أو المفعول به، وفيه:

المطلب الأول: حذف الفعل.

المطلب الثاني: حذف المفعول به.

المبحث الثالث: حذف الصفة أو الموصوف، وفيه:

المطلب الأول: حذف الصفة.

المطلب الثاني: حذف الموصوف.

المبحث الرابع: حذف المضاف أو المضاف إليه، وفيه:

المطلب الأول: حذف المضاف.

المطلب الثاني: حذف المضاف إليه.

المبحث الخامس: حذف جواب الشرط والقسم، وفيه:

المطلب الأول: حذف جواب الشرط.

المطلب الثاني: حذف القسم أو جوابه.

الفصل الثاني: عادة القرآن في الإضمار والإظهار والإيجاز والإطناب، وفيه:

المبحث الأول: كون الإضمار يقوم مقام الإظهار، وفيه:

المطلب الأول: وضع الظاهر موضع المضمر.

المطلب الثاني: وضع المضمر موضع الظاهر.

المبحث الثاني: إيجاز الحذف والقصر، وفيه:

المطلب الأول: إيجاز الحذف.

المطلب الثاني: إيجاز القصر.

المبحث الثالث: الإطناب، وفيه:

المطلب الأول: الإيضاح بعد الإيهام.

المطلب الثاني: ذكر الخاص بعد العام.

المطلب الثالث: التكرار.

المطلب الرابع: التذييل.

الباب الثالث: عادات القرآن في تراكيبه، وفيه:

الفصل الأول: عادات القرآن في قرن بعض الألفاظ ببعض، وفيه:

المبحث الأول: قرن بعض الأسماء ببعض، وفيه:

المطلب الأول: قرن بعض أسماء الله جل وعلا ببعض.

المطلب الثاني: قرن بعض أسماء البشر ببعض.

المطلب الثالث: قرن بعض الطوائف ببعض.

المبحث الثاني: قرن بعض الآيات الكونية ببعض، وفيه:

المطلب الأول: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.

المطلب الثاني: قرن دلائل الأنفس بدلائل الآفاق.

المبحث الثالث: قرن بعض الأحكام ببعض، وفيه:

المطلب الأول: قرن بعض العبادات الشرعية ببعض.

المطلب الثاني: قرن الأحكام بما يحث على فعلها.

المبحث الرابع: قرن الترغيب بالترهيب، وفيه:

المطلب الأول: قرن الوعد بالوعيد.

المطلب الثاني: تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله.

المبحث الخامس: ما يضاف إلى الله تعالى من الخير والشر، وفيه:

المطلب الأول: إضافة الخير إلى الله دون الشر.

المطلب الثاني: ذكر سبب العقاب.

الفصل الثاني: عادات القرآن في قصصه، وفيه:

المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها، وفيه:

المطلب الأول: توارد قصص الأنبياء عليهم السلام.

المطلب الثاني: ذكر القصص بعد دلائل التوحيد.

المطلب الثالث: تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر.

المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص، وفيه:

المطلب الأول: الاقتصار في سوق القصص على المقصود.

المطلب الثاني: الطول والقصر في القصة.

المطلب الثالث: تكرار القصة.

الفصل الثالث: عادات القرآن في خطاباته، وفيه:

المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء، وفيه:

المطلب الأول: نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم.

المطلب الثاني: نداء النبي ﷺ بوصفه.

المطلب الثالث: خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته.

المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس، وفيه:

المطلب الأول: الخطاب بلفظ الناس وبلفظ الإيمان.

المطلب الثاني: خطاب الرجال والنساء.

المطلب الثالث: خطاب العام وخطاب الخاص.

المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب، وفيه:

تمهيد:

المطلب الأول: انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب.

المطلب الثاني: انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم.

المطلب الثالث: انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم.

المطلب الرابع: انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة.

المطلب الخامس: انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة.

المطلب السادس: انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب.

ـ الخاتمة:

وفيها نتائج البحث، وتوصيات الباحث.

ـ فهارس البحث:

١ ـ فهرس الآيات.

٢ ـ فهرس الأحاديث والآثار.

٣ ـ فهرس الأعلام.

٤ ـ فهرس العادات القرآنية.

٥ ـ فهرس الكلمات اللغوية.
٦ ـ فهرس الأبيات الشعرية.
٧ ـ ثبت المصادر والمراجع.
٨ ـ فهرس محتويات الرسالة.

❐ منهج البحث:

أعتمدت المنهج الاستقرائي التحليلي حسب ما يأتي:

١ ـ جمع عادات القرآن من كتب التفسير وغيرها، وترتيب المادة العلمية المستخرجة على حسب ترتيب الأبواب والفصول التي ذكرت.

مع اليقين التام بأن عادات القرآن تفوت كل محاولة لتحديدها، وتُجاوز طاقات النفس البشرية على مشارفَة آفاقها المتنوعة، وتَسِم بالعجز كل اجتهاد لاجتلائها، والمحاولة جادة بقدر المستطاع لرصد بعض أسرار القرآن وعاداته وفتح الباب للتأمل والتدبر في آياته.

٢ ـ دراسة العادات؛ وذلك على النحو الآتي:

أ ـ ذكر تمهيد مختصر لكل عادة يوضح المراد منها.

ب ـ تطبيق العادة على عدد من الآيات مع التوضيح، واعتمدت في دراسة العادات: قراءة حفص عن عاصم رحمهما الله، ولم أُدخل القراءات الأخرى.

جـ ـ الإكثار قدر المستطاع من النقول لكلام العلماء على كل عادة ومثال؛ تأييداً لما توصلت إليه.

د ـ إذا كانت العادة متفقاً عليها ذكرت شواهدها وما يُعززها، وأذكر الاستثناءات إن وجدت، مجتهداً في توضيح ما قاله العلماء فيها.

هـ ـ بعد كل عادة أجتهد في ذكر ما أتوصل إليه من حكم وأسرار، ولا يلزم أن يكون ما أذكره هو السبب دون غيره.

و ـ أذكر العادات ولو لم أقف فيها على تعليل، وأكل العلم إلى الله تعالى فيما عجز القلم أن يكتب فيه سراً، فللَّه الحكمة البالغة.

ز ـ الاختصار في العرض للعادة، واختيار الأمثلة المحررة للعادة حتى لا تحتاج إلى بيان طويل.

ح ـ ما أذكره من أمثلة فليس بالضرورة أن يكون متفقاً عليه، فزيادة الأمثلة من باب التأكيد، والشأنُ لا يُعْتَرضُ المثال، إذ قد كفى الفرض والاحتمالُ.

ط ـ الحرص على كون البحث محصوراً على الدراسة القرآنية، وعدم الإسهاب في المسائل إلا عند الضرورة مع الاختصار.

ي ـ ذكر النتيجة التي توصلت إليها بعد كل عادة قدر المستطاع.

٣ ـ عزو الآيات إلى سورها من القرآن وترقيمها، وجعلها بين معقوفتين.

٤ ـ تخريج الأحاديث، وعزوها إلى مصادرها، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بهما، وإن لم يكن فيهما، فمع عزوه إلى مصادره أذكر درجته صحةً وضعفاً، معتمداً في ذلك على كلام المحققين من أهل الحديث.

٥ ـ إحالة كلام أهل العلم إلى موضعه من كتبهم إن وجدت، أو المعتبرة في نقل أقوالهم عند عدمها.

٦ ـ نسبة الأبيات الشعرية إلى قائليها وتوثيقها.

٧ ـ شرح المصطلحات والكلمات الغريبة وتوضيحها.

٨ ـ التعريف بالأعلام باختصار، ثم الإحالة على مرجع أو اثنين من مراجع ترجمته، مع ملاحظة ما يلي: عدم التعريف بالأنبياء والخلفاء الأربعة ورواة الأحاديث، ومن كان في نص منقول، ولم أذكر الألقاب العلمية؛ لكون ذلك معلوماً إلا أن ينص عليها المنقول عنه.

٩ ـ التعريف بالفِرق مما يحتاج إلى تعريف في أول موطن ترد فيه قدر الاستطاعة.

وقبل أن أختم أتوجه بالشكر الجزيل لله ﷻ على ما منّ به علي من نعم عظيمة، ويسر لي من منن جسيمة، فللَّه الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

ثم أُثنِّي بالشكر والتقدير والدعاء والوفاء، لوالديَّ الكريمين، اللَّذَيْن

ربياني صغيراً، وغمراني بفضلهما كبيراً، فقد أحاطاني بالتشجيع، والتوجيه، والدعاء، فجزاهما الله عني خير ما جزى والداً عن ولده.

ثم أشكر لأهل الفضل فضلَهم، فأُزجي وافر الشكر، وعاطر الثناء، لصاحبي الفضيلة، شيخيّ القديرين فضيلةِ الشيخِ الدكتورِ: محمد بن سريع السريع، الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين المشرفِ على الرسالة، وفضيلةِ الشيخ الدكتور: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية المشرف المساعد، حيث تكرما بقبول الإشرافِ على هذه الرسالة، رغم كثرةِ الأعمال، وضيقِ الوقت، ولقد أفدتُ منهما العلم الغزير، والخلق النبيل، والتوجيه الوجيه، وحالي مع الواحد منهما:

يـزيـد تـكـرمـاً وأزيـد شـكـراً وذلـك دأبـه أبـداً ودأبـي

فلهما مني شكرٌ يتناهي، وثناءٌ يتجدد، ودعاء صادق، ألظُّ به لدى الرواحة والبكور.

كما أشكر أصحاب الفضيلةِ أعضاءَ لجنة المناقشة: فضيلة الأستاذِ الدكتور فهد بن عبد الرحمٰن الرومي الأستاذ في كلية المعلمين بجامعة الملك سعود، وفضيلةَ الأستاذِ الدكتور: بدر بن ناصر البدر الأستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الإمام، وفضيلة الدكتورِ: عبد العزيز بن صالح العمار الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام على قبولهم مناقشة الرسالة، وأسأل الله أن ينفعني بتوجيهاتهم وملحوظاتهم.

ولا يفوتني أن أشكر فضيلة الشيخ الدكتور: أحمد بن ناصر الطريقي المرشدِ العلميِّ لخطةِ البحث، حيث أفدت من علمه، وأدبه، وتوجيهاته حتى تمت الموافقة على خطة البحث.

والشكر يتكرر لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور: بدر بن ناصر البدر رئيس القسم آنذاك والذي أشار علي بهذا الموضوع وسقاه مذ كان فكرة مرتبطاً بتفسير الرازي فحسب، حتى تطور وعم التفاسير واستوى على سوقه، فبارك الله في الجهود وسدد الخطى.

كما أشكر جميع المشايخ والإخوة والأصدقاء الذين وقفوا معي، وأعانوني على إتمام هذا البحث، فبارك الله فيهم ووفقهم أينما كانوا.

والشكرُ والدعاء يُسدَيَان لجامعتِنا الغراء، الجامعةِ المباركة، جامعةِ الإمامِ محمدِ بن سعودٍ الإسلاميةِ، إدارةً، وعماداتٍ، وكلياتٍ، فقد كان جُلُّ تعليمي في قاعاتها، متتلمذاً على أساتذتها، وعلمائها، فاللَّهُمَّ اجز من أسسها، ومن سعى في رقيها ونهضتها خيراً، ثم الشكر لكلية أصول الدين خصيصاً، مُمُثلة بعميدِها، ووكلائِها، ورؤساءِ أقسامِها، وأعضاءِ هيئةِ التدريسِ فيها، حيث أتيحت لي فرصةُ الالتحاق بمرحلة الدكتوراه، في قسم القرآن وعلومه، فنهلت من علوم المشايخِ، وأفدتُ من أخلاقِهم، وتوجيهاتِهم، وتجاربِهم.

والشكر يُساق لكلية اللغة العربية التي كان لها الأثر البارز في مساندة البحث وخدمة كتاب الله تعالى، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

وهذه الجامعة العظيمة إنما هي ثمرة من ثمار دولتنا المباركة التي أقامت الشريعة، ورفعت راية التوحيد، وأولت جانب العلم الشرعي مزيد عناية، وعمَّ خيرُها القاصي والداني، وبلغ شُعاعُها السهولَ والحزون.

تأمل شمسَها ومدى ضحاها تجد في كل ناحية شُعاعاً

هذا، وأسألُ اللهَ سبحانه أن يغفر لي كلَّ زلل، وكل خطل في القول والعمل، وأن يتداركني ووالدي ومشايخي برحمته وعفوه، وأن يوفق الجميع لكل خير، إنه سميع قريب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

راشد بن حمود بن راشد الثنيان

التَّمْهِيد

وفيه:

- بيان مصطلح (عادات القرآن) إفراداً وتركيباً.
- ظهور مصطلح (عادات القرآن) وعناية العلماء به.
- منزلة عادات القرآن في التفسير.

بيان مصطلح (عادات القرآن) إفراداً وتركيباً

تعريف عادات القرآن باعتبار مفرديه:

❐ أولاً: تعريف العادات لغة واصطلاحاً:

تعريف العادات لغة:

العادات: جمع كثرة، مفرده عادة، مِنْ عاد يَعُود عَوْداً، والعَوْد: تكرار الأمر وتثنيته(١).

قال الخليل: «العَوْد: هو تثنية الأمر عوداً بعد بَدْء»(٢).

وقال ابن فارس: «العين والواو والدال أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تثنية في الأمر، وهو العَوْد..»(٣).

والعادةُ: الدُّرْبة، والتمادي في الأمر حتّى يصيرَ له سجيّة.

ويُقَالُ للرَّجُل المواظب في الأمر: مُعاوِد(٤).

قال الجوهري: «والعادة معروفة، والجمع عادٌ وعادات، تقول منه: عادَهُ واعتَادَه»(٥).

ومن هذا الباب:

العِيادة: أن تعود مريضاً، ولآل فلانٍ مَعَادةٌ؛ أي: أمر يغشاهم الناسُ له.

والمَعَاد: كل شيء إليه المصير، والآخرة مَعادٌ للناس، واللهُ تعالى

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (عود) ٥٩٣.
(٢) العين، مادة: (عود) ٢/ ٢١٧.
(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: (عود) ٤/ ١٨١.
(٤) ينظر: العين ٢/ ٢١٨، تاج العروس ٨/ ٤٤٤.
(٥) الصحاح ٣/ ٧٦.

المبدِئ المُعيد، وذلك أنه بدأَ الخلْقَ ثم يُعيدهم. وتقول: رأيتُ فلاناً ما يبدئ وما يعيد؛ أي: ما يتكلم ببادئةٍ ولا عائدة.

ومنه المعاوَدَة، واعتياد الرَّجل، والتعوُّد.

والقياس صحيح في كلِّ هذه المعاني[١].

قال ابن منظور: «والعادَةُ: الدَّيْدَنُ يُعادُ إِليه، معروفة، وجمعها: عادٌ وعاداتٌ، وتَعَوَّدَ الشيءَ وعادَه وعاوَدَه مُعاوَدَةً وعِواداً واعتادَه واستعاده وأَعادَه؛ أي: صار عادَةً له»[٢].

تعريف العادات اصطلاحاً:

من أهم التعريفات التي ذكرها العلماء في تعريف العادة:

التعريف الأول: ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى[٣].

التعريف الثاني: ما استقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطباع السليمة[٤].

وهذا مفهوم واسع للعادة حيث يدخل فيه كل ما نشأ الناس عليه واعتادوه، واستقر في نفوسهم، فلفظ (ما) يعم ما تعارفه الناس سواء كان صحيحاً أو فاسداً، وسواء كان قولياً أو فعلياً.

وعلى هذا تجري العادة في الأقوال والأفعال، ويقوم كيانها على استقرار الأمر في النفوس واعتياد الناس وتكرارهم لها، وقبول الطباع السليمة لها[٥].

---

(١) أي: القياس على الأصل وهو: تكرار الأمر وتثنيته. ينظر: معجم مقاييس اللغة ٤/ ١٨١.

(٢) لسان العرب ٣/ ٣١٥.

(٣) ينظر: التعريفات ١٤٦، الكليات ٦١٧، المعجم الوسيط ٢/ ٦٣٥.

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم ٩٣، وهذا هو تعريف الفقهاء. مجموع رسائل ابن عابدين ٢/ ١١٤.

(٥) ينظر: العرف وأثره في الشريعة والقانون ٣٦.

التعريف الثالث: الأمر المتكرر من غير علاقة عقلية[١].

لأن التكرار إذا كان ناشئاً عن علاقة عقلية، وهي التي يحكم العقل فيها لم يكن عندئذ من قبيل العادة، بل من قبيل التلازم العقلي، وذلك كتكرر حدوث الأثر كلما حدث مُؤَثِّرُه، كتحرك الخاتم بحركة الإصبع، وتحرك ورق الشجر كلما تحرك الريح، فلا يسمى عادة ـ على هذا التعريف ـ مهما تكرر؛ لأنه ناشئ عن تلازم وارتباط في الوجود بين العلة والمعلول، يقضي به العقل، وليس ناشئاً عن ميل الطبع.

فهذه خلاصة تعريف اللغويين والفقهاء والأصوليين للعادة اصطلاحاً، وبينها فروق يسيرة.

وعلى هذا فالقول بأن العادة: هي الأمر المتكرر متفق عليه بين الأصوليين والفقهاء، والأمر المتكرر يشمل كل حادث يتكرر؛ لأن لفظة [الأَمْرِ] من أوسع ألفاظ اللغة عموماً وشمولاً[٢].

ويبقى أن التعريف الثاني يُخرِج من العادة ما لا تقبله الطباع السليمة، ومن باب أولى ما لا يوافق الشرع[٣].

وفي التعريف الأخير إخراج الأمر المتكرر لوجود علاقة عقلية، فلا يُعتبر عادة، وإنما هو تلازم عقلي، والله تعالى أعلم.

❐ ثانياً: تعريف القرآن لغة واصطلاحاً:

تعريف القرآن لغة:

اختلفت آراء العلماء من جهة كون هذا اللفظ جامداً أو مشتقاً، ومن جهة كونه مهموزاً أو لا، ويمكن توضيح ذلك مختصراً من خلال النقاط التالية:

---

(١) ينظر: التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ٢/ ٢٢١، وهذا هو تعريف الأصوليين.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ١٣٧، أصول الفقه الإسلامي ٢/ ٨٢٩، الوجيز في إيضاح القواعد الفقهية الكلية ٢٧٤.

(٣) ينظر: شرح الكوكب المنير ٤/ ٤٤٨، ٤٤٩.

أولاً: اتفق العلماء على اسمية لفظ [قُرْآنٌ] فليس بفعل ولا حرف.

ثانياً: القرآن على وزن فعلان؛ كغفران وشكران، وهو مهموز كما في قراءة جمهور القراء، وقَرَأ ابن كثير بالتخفيف: قُرَان، نَقَل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها.

قال الشاطبي:

ونَــقْــلُ قُــرَانٍ والــقُــرَانِ دَوَاؤُنَــا .... [1]

ثالثاً: اختلف العلماء في كونه جامداً أو مشتقاً، وإليك مذاهبهم:

المذهب الأول: أن القُرَان اسم جامد، وهذا قول الشافعي[2]، واختاره السيوطي[3].

والمذهب الثاني: أن القرآن اسم مشتق، وهو قول الجمهور[4]، على تفصيل في مادة الاشتقاق[5].

---

(١) المراد: بيان القراءة بنقل حركة الهمزة لابن كثير، وظاهره: أن نقل القرآن وهو قراءته وتلاوته وتعليمه دواء لمن استعمله مخلص من أمراض المعاصي، ثم قراءة ابن كثير هذه تحتمل أن تكون من باب نقل حركة الهمزة كما ذكر، وتحتمل أن تكون من قرنت بلا همز؛ أي: جمعت، ومنه: القِرَان في الحج. ينظر: إبراز المعاني من حرز الأماني ١/ ٣٥٧، رقم البيت ٥٠٠.

(٢) ينظر: مستدرك الحاكم ٢/ ٢٥٠ (٢٩٠٥)، معرفة السنن والآثار للبيهقي ٧/ ٥٦٨ (٦١٤٠) رواية عن شيخه إسماعيل بن قسطنطين.

(٣) الإتقان ١/ ١١٣.

(٤) ينظر: البرهان ١/ ٢٧٨، الإتقان ١/ ١١٢.

(٥) قيل: مشتق من قَرَنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، سُمِّي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه. ينظر: البرهان ١/ ٢٧٨.

وقيل: مشتق من القرائن؛ لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً فهي حينئذ قرائن. ينظر: تفسير الرازي ٥/ ٧٤، البحر المحيط ٢/ ٣٢، وهو بلا همز ونونه أصلية على هذين القولين.

وقيل: مشتق من القرء وهو الجمع؛ لأن القرآن يجمع الآيات والسور ويضم بعضها إلى بعض، وهو على هذا القول مهموز ونونه زائدة، ينظر: لسان العرب ١/ ١٢٨، الكليات ١١٤٢، مناهل العرفان ١/ ١٤.

وأشهر الأقوال أنه مشتق من مادة: (قرأ)، بمعنى تلا.

والدليل على ذلك استعمال هذا اللفظ ومشتقاته في كلام الله سبحانه، فهو مصدر القراءة، يقال: قرأت القرآن فأنا أقرؤه، من قرأ قراءةً وقرآناً فهو مصدر[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة].

قال الزرقاني: «أما لفظ القرآن فهو في اللغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة]، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي من باب إطلاق المصدر على مفعوله؛ ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق، وإليه ذهب اللحياني، وجماعة، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجُعِل اسماً لكلام الله تعالى.

أما القول بأنه وصف من القرء، بمعنى الجمع، أو أنه مشتق من القرائن، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجل؛ أي: موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل غير مهموز ولا مجرد من أل، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه، ولا يخلو توجيه بعضه من كلفة، ولا من بُعْدٍ عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة.

وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف وإذا دخلته أل بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف»[٢].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٥/ ٧٤.

(٢) مناهل العرفان ١/ ١٤، وينظر: مباحث علوم القرآن للقطان ٢٠.

فالقرآن هو المقروء، من باب تسمية المفعول بالمصدر[١]، ثم غلب اسماً على كلام الله تعالى المحفوظ بين دفتي المصحف.

تعريف القرآن اصطلاحاً:

هو: «كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته»[٢].

شرح التعريف:

(كلام الله) جنس في التعريف يشمل جميع كلام الله جل وعلا، ويُخرج كلام غيره سبحانه من الإنس والجن والملائكة.

وخرج بقوله: **(المنزل)** كلام الله تعالى لأهل السماء، وما استأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

وتقييد المنزل بكونه: **(على محمد ﷺ)** يُخرِج ما أُنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل، وكل ما لم ينزل على محمد ﷺ سوى القرآن.

وقوله: **(المتعبد بتلاوته)**؛ أي: المقروء في الصلاة، والمثاب على قراءته، فيُخرِج القراءات الشاذة، والحديث القدسي[٣].

❐ ثالثاً: تعريف عادات القرآن باعتبار تركيبه:

أثبت ربنا جل وعلا أن له سنناً وعادات مع خلقه في غير ما آية.

ـ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

قال الماوردي: «قوله ﷻ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح]؛ يعني: طريقة الله وعادته السالفة نصر رسله

---

(١) ينظر: الإتقان ١/ ١١٣.

(٢) ينظر: التعريفات ٢٢٣، مناهل العرفان ١/ ١٥، ولكثرة خصائص القرآن تعددت التعريفات؛ فيُذكر في تعريف من خصائصه ما لا يذكر في الآخر، والله أعلم.

(٣) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٥٩، مباحث في علوم القرآن ٢٠، دراسات في علوم القرآن ٢١، المحرر في علوم القرآن ٢٢.

وأوليائه على أعدائه»[١].

ـ وقال سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء].

قال ابن جزي: «ومعناه: العادة؛ أي: هذه عادة الله مع رسله»[٢].

ـ وقال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر].

قال السعدي: «أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله»[٣].

وعادات القرآن هي عادة الله تعالى في كلامه المنزل.

ومن خلال تعريف العادات والقرآن باعتبار مفرديهما؛ يظهر لي أن إضافة العادات إلى القرآن من باب إضافة نوع من علوم القرآن إلى القرآن.

قال الشاطبي في أقسام العلوم المضافة إلى القرآن: «وقسم هو من عادة الله تعالى في إنزاله، وخطاب الخلق به، ومعاملته لهم بالرفق والحسنى..»[٤].

ولم أجد ـ فيما اطلعت عليه ـ من عرَّف عادات القرآن كمصطلح إضافي، ولذا فإني ـ بعد طول تأمل ـ رأيت أن يُقال في **تعريف عادات القرآن:**

«ما كرره القرآن على طريقة واحدة أو أغلبية لدلالة خاصة».

شرح التعريف:

(ما كرره) بمعنى: أنه تكرر أكثر من مرة، فأخرج ما جاء ذكره مرة واحدة.

(القرآن) خرج به ما تكرر في غير القرآن، من العادات في الفقه والأصول وسائر العلوم.

(على طريقة واحدة)؛ يعني: على حال واحدة في كل القرآن، وخرج به ما تنوع وروده في القرآن.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.
(٢) التسهيل ٢/ ١١٦.
(٣) تفسير السعدي ٤٢٩.
(٤) الموافقات ٤/ ٢٠٠.

(أو أغلبية)؛ يعني: الأكثر من مواضعها، فلا تنخرم العادة إذا خرج موضع أو أكثر على غير الطريقة الأغلبية، ويُخرِج هذا ما جاء على طريقتين متساويتين في القرآن.

قال الشاطبي: «الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم، فلا تنقضه الأفراد الجزئية الأقلية؛ لأن الكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية، واعتمدت في الحكم بها وعليها، شأن الأمور العادية الجارية في الوجود»(١).

(لدلالة خاصة)؛ أي: لمعنى وسرّ أراده القرآن من التكرار، وخَرَج به ما تكرر في القرآن ودلالته عامة كعامة مسائل النحو والإعراب.

قال ابن الأثير: «وصاحب علم البيان والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي؛ وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة؛ وهي دلالة خاصة، والمراد بها: أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب»(٢).

وقال ابن تيمية: «ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يُقصَد إذا ذُكر لفظ من القرآن والحديث أن يُذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيُعرف بذلك لغة القرآن والحديث، وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه...»(٣).

فيدخل في هذا المصطلح: عادات القرآن في حروفه وألفاظه وتراكيبه

---

(١) المرجع السابق ٤/ ١٧٥.
(٢) المثل السائر ١/ ٢٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.

وأحكامه ومعانيه، كلية أو أغلبية، علمنا دلالتها أو لم نعلم، فهو مصطلح واسع وكبير، ولا يمكن حصره في بحث بل ولا في بحوث.

وبحثي هذا سيقتصر على جزء كبير ومهم من عادات القرآن، وهو **عادات القرآن الأسلوبية**.

والمراد بالأسلوب: أجناس الكلام وطرقه.

قال الجوهري: «الأساليب: هي أجناس الكلام وطرقه»(١).

وقال: «والأُسلوب بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول؛ أي: في فنون منه»(٢).

وقال الجرجاني: «الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه»(٣).

وقال ابن منظور: «وكل طريق ممتد فهو أُسلوب، ويُجمَعُ أَسالِيبَ، والأُسْلوبُ بالضم الفَنُّ، يقال: أَخَذ فلانٌ في أَسالِيبَ من القول؛ أي: أَفانِينَ منه»(٤).

والقول مكون من حرف ولفظ وجملة(٥).

والقيد بالأسلوبية: يُخرِج عادات القرآن في غير الأسلوب، وهي كثيرة كعادات القرآن في الأحكام الفقهية والعقدية، وعادات القرآن المعنوية عموماً، وغيرها.

فعادات القرآن الأسلوبية:

«ما كرره القرآن من أساليبه على طريقة واحدة أو أغلبية لدلالة خاصة».

هذا هو ما سأتناوله في هذا البحث بمشيئة الله تعالى، سالكاً طريقة التطبيق بالأمثلة على آيات القرآن، أسأل الله التوفيق والسداد.

---

(١) الصحاح ٧/ ٢٧.
(٢) الصحاح ٢/ ١٦٧، وينظر: لسان العرب ١/ ٤٧١.
(٣) دلائل الإعجاز ٣٣٨.
(٤) لسان العرب ١/ ٤٧١.
(٥) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ٤٧، ٤٨.

ظهور مصطلح (عادات القرآن) وعناية العلماء به

بدأ الكلام في عادات القرآن منذ ظهور علوم القرآن، الذي تزامن مع نزول القرآن، فمسألة (أول ما نزل، ونزول الوحي) جزء من علوم القرآن.

ثم بدأت العلوم تظهر شيئاً فشيئاً.

والكلام في عادات القرآن مرتبط بالتفسير الذي هو جزء من علوم القرآن، وفيه ما لا يقوم التفسير إلا به؛ كعلم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، وغيرها مما لا تخلو منه كتب التفسير.

وقد اعتنى السلف بعادات القرآن، فضمَّنوها تفسيرهم للآيات، ومن ذلك:

ـ قول ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١] يقول: كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها: وكل شيء في القرآن: كاد، أو كادوا، أو لو، فإنه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]»(١).

ـ وقول ابن عباس ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار، وغيرهم رضي الله عنهم: «كل شيء في القرآن [أَوْ] كذا [أَوْ] كذا فصاحبه بالخيار، أيّ ذلك شاء فعل»(٢).

ـ وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «وكل [عَسَى] في القرآن فهي واجبة»(٣).

ـ وقول الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصَّافات: ٤٥] قال: «كل كأس في القرآن فهو خمر»(٤).

وقال ابن عيينة: «ما سمى الله تعالى ﴿مَّطَرًا﴾ في القرآن إلا عذاباً،

(١) أخرجه الطبري ٢/ ٢١٩.
(٢) أخرجها الطبري ٣/ ٧٤، ٧٥.
(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ١٦٨.
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦.

وتسمية العرب الغيث، وهو قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ﴾ [الشورى: ٢٨]»[(١)].

وقال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق: مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس»[(٢)].

وقال مكي: «وكل شيء في القرآن: أجر كريم، وأجر كبير، ورزق كريم فهو الجنة»[(٣)].

وقال الراغب: «القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء، وفي عامة القرآن أريد الرجال والنساء جميعاً»[(٤)].

فمن هذه النقولات وغيرها تبرز عناية العلماء بعادات القرآن في زمن متقدم من حيث الأصل دون المصطلح، فلم تكن عادات القرآن بخافية على العلماء، بل ذكروها دون إدخالها في مصطلح محدد، حتى ظهر هذا الاصطلاح في القرن السادس، فأول من نص على هذا المصطلح فيما اطلعت عليه الزمخشري حيث قال: «من عادته ﷻ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يُزلِف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف»[(٥)].

ثم تتابع المفسرون والمحققون على استعمال هذا المصطلح.

قال الرازي: «عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٧٧ معلقاً بصيغة الجزم، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢١.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٩٥١، ٦/ ٤١٥١.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن ٦٩٣، وذكر جملة كبيرة من عادات القرآن وأفردها المحقق صفوان عدنان دواوودي في فهرس مستقل ٩٤٨.

(٥) الكشاف ١/ ١٣٣.

وبيان الأحكام مختلطاً بعضها بالبعض ليكون كل واحد منها مقوياً للآخر ومؤكداً له»[١].

وقال البيضاوي: «﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف: ١٥٩]؛ يعني: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس محقين، أو بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ﴾ بالحق ﴿يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ بينهم في الحكم، والمراد بها: الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أتْبَعَ ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن، تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر»[٢].

وقال ابن تيمية: «فعادة القرآن إذا أضيف القول إلى الله أن يقال: قول الله، لا يقال: قول الحق إلا إذا كان المراد القول الحق، كما في قوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ [مريم: ٣٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ [ص: ٨٤]»[٣].

وقال ابن القيم: «والآثار السلفية والمألوف من عادة القرآن في استعماله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ [الحاقَّة: ٣]، في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم والله أعلم»[٤].

وقال الزركشي: «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]..»[٥]، ومثله قال السيوطي[٦].

وقال ابن حجر: «عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً كما قال في الكهف: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف]»[٧].

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٢٠.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٦٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٤٨٠.
(٤) التبيان في أقسام القرآن ١/ ٢٤.
(٥) البرهان ١/ ١٧٠.
(٦) الإتقان ٢/ ٢٤٤.
(٧) فتح الباري ٨/ ٦٨٠.

وقال ابن عادل: «. . . قد تقدم أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين»[١].

وقال البقاعي: «التقدير: ثم يعيدكم خلقاً جديداً كما كنتم أول مرة، فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع إلى ذكره»[٢].

وقال السيوطي: «﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢] وهذا جَرْيٌ على عادة القرآن في الخطاب فلا مفهوم له»[٣].

وقال ابن عاشور: «والخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان، ولأن شأن الموصول أن يكون بمنزلة المعرف بلام العهد»[٤].

إلى غير ذلك من المواضع الكثيرة في كتب المفسرين وغيرهم؛ مما يدل على اهتمامهم وعنايتهم به.

وخلال هذه القرون الطويلة تداول العلماء هذا المصطلح وتتابعوا عليه دون نكير.

ويعد ابن عاشور أول من وضع مصطلح: عادات القرآن، عنواناً لباب مستقل، وبين أهمية معرفة عادات القرآن للمفسر[٥].

وأُلخص أهم مظاهر عناية العلماء بعادات القرآن في الأمور الآتية:

١ ـ أن عناية العلماء بعادات القرآن انطلقت من عنايتهم بكتاب الله تعالى، وهذا أمر ظاهر، ومن علوم القرآن عادته في النزول، وعادته في النسخ، وعادته في الأمثال والأقسام وغيرها، ومما تتابع العلماء على بيانه، وإبراز أسراره ولطائفه: عادات القرآن في حروفه وألفاظه وتراكيبه.

٢ ـ ومن عناية العلماء بعادات القرآن ربط التفسير بها في كثير من المواضع.

---

(١) تفسير اللباب ١٤/ ١٤٦.
(٢) نظم الدرر ٦/ ٣٧٩.
(٣) تفسير الجلالين ١١٩.
(٤) التحرير والتنوير ٢/ ٢٢٢.
(٥) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الورود الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]: «الورود: الدخول، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء] أورود هو أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود] أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع»(١).

وقال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠] فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم فيه بما قلنا إن معناه: والذين هم بالله مشركون.

وعن الربيع: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أشركوه في أعمالهم.

والقول الأوّل، أولى القولين في ذلك بالصواب، وذلك أن الذين يتولون الشيطان إنما يشركونه بالله في عبادتهم وذبائحهم ومطاعمهم ومشاربهم، لا أنهم يشركون بالشيطان.

ولو كان معنى الكلام ما قاله الربيع، لكان التنزيل: الذين هم مشركوه، ولم يكن في الكلام به، فكان يكون لو كان التنزيل كذلك، والذين هم مشركوه في أعمالهم، إلا أن يوجه موجه معنى الكلام، إلى أن القوم كانوا يدينون بألوهة الشيطان، ويشركون الله به في عبادتهم إياه، فيصحّ حينئذ معنى الكلام، **ويخرج عما جاء التنزيل به في سائر القرآن**، وذلك أن الله تعالى وصف المشركين في سائر سور القرآن أنهم أشركوا بالله، ما لم ينزل به عليهم سلطاناً، وقال في كلّ موضع تقدّم إليهم بالزجر عن ذلك، لا تشركوا بالله شيئاً، ولم نجد في شيء من التنزيل: لا تشركوا الله بشيء، ولا في شيء من القرآن، خبراً من الله عنهم أنهم أشركوا الله بشيء، فيجوز لنا توجيه معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ إلى: والذين هم

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٠.

بالشيطان مشركو الله. فبيِّنٌ إذاً إذ كان ذلك كذلك، أن الهاء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ عائدة على الربّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٩٩]»[(١)].

٣ ـ ومما يدل على عنايتهم بعادات القرآن استقراء القرآن كاملاً لاستخراجها.

فقد قال ابن عاشور: «وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن»[(٢)].

٤ ـ الترجيح بعادات القرآن.

قال ابن القيم في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطَّارق]: «والقول الأول هو الصواب ـ أي: إنه على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه ـ لوجوه، أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن في الاستدلال بالمبدأ على المعاد»[(٣)].

وقد أكثر ابن القيم من الاستدلال بعادات القرآن، والترجيح بها، وأطلق عليها: عادة القرآن، ومعهود القرآن، وطريقة القرآن، ونحوها.

٥ ـ إيجاب العلماء تنزيل كلام الله تعالى على عادته الغالبة منه.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطقنا فيما له فيه عُرْف بعُرْفِه»[(٤)].

وقال ابن تيمية: «إذا عُرف المتكلم فُهِم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ولهذا كل

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٥، وينظر: ١/ ٢٢٣.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٢٥.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ٦٦.
(٤) الإحكام ٣/ ٢٠.

من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يُقصَد إذا ذُكر لفظ من القرآن والحديث أن يُذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيُعرف بذلك لغة القرآن والحديث، وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه...»[(١)].

وقال ابن نجيم: «واعلم أن اعتبار العادة والعرف يُرجَع إليه في مسائل كثيرة، حتى جعلوا ذلك أصلاً»[(٢)].

وعليه فقد اعتنى السابقون بعادات القرآن، قبل ظهور هذا المصطلح وبعده، وهي في تطور مستمر، يزيدُ باستقراء القرآن وتأمل ألفاظه ومعانيه واستخراج كنوزه وأسراره، أسأل الله جل وعلا أن يبارك في الجهد ويوفق للصواب.

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.
(٢) الأشباه والنظائر ٩٣.

منزلة عادات القرآن في التفسير

علوم القرآن كثيرة، تعين على فهمه على الوجه الصحيح، ونشأتها إنما كان لخدمة النص القرآني، وقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وكان صحابة رسول الله ﷺ على دراية بلسان العرب، يعرفون معاني ألفاظه، وتصرّف أساليبه، فقد كانوا على سليقة سليمة، وقُربِ عهد بنزول الكتاب المبارك، فيعرفون لغة القرآن، وإذا نزلت بهم حادثة فزعوا إلى كتاب الله، فإن لم يجدوا فيه حاجتهم فزعوا إلى السُّنَّة الصحيحة، فإن لم يجدوا فيها اجتهدوا وألحقوا الأشباه بالأشباه، مراعين المصالح التي راعتها الشريعة، فلم يكونوا بحاجة إلى كتابة قواعد وأصول للتعامل مع القرآن، بل دونها العلماء بعد ذلك من خلال النظر في النصوص وأساليب السلف ومناهجهم في التعامل معها.

فعناية المسلمين بالقرآن خلَّف ثروة علمية في مختلف المجالات، تجتمع كلها تحت ما اصطُلِح على تسميته (علوم القرآن)، لضمان الفهم الصحيح لنصوص الكتاب، ومن ذلك عادات القرآن.

ـ فعادات القرآن من جملة علوم القرآن المتنوعة.

قال الشاطبي في تقسيم العلوم المضافة إلى القرآن: «وقسم وهو مأخوذ من عادة الله تعالى في إنزاله، وخطاب الخلق به، ومعاملته لهم بالرفق والحسنى، من جعله عربياً يدخل تحت نيل أفهامهم.. ويشتمل على أنواع من القواعد الأصلية والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية؛ فلنذكر منها أمثلة يُستعان بها في فهم المراد:

فمن ذلك: عدم المؤاخذة قبل الإنذار، ودل على ذلك إخباره تعالى عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، فجرت

عادته في خلقه أنه لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرسل، فإذا قامت الحجة عليهم، فمن شاء ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكل جزاءُ مثلِه»[١].

ـ وإذا عُرفت عادة القرآن فهي دليل استقرائي لا يخرج عنه معنى الآية غالباً.

قال الشنقيطي: «من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن، فغلبته فيه دليل استقرائي على عدم خروجه من معنى الآية، وقد قدمنا أمثلة لذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما استدل على المراد بورود النار في الآية بمثل ذلك الدليل الذي ذكرنا: أنه من أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك...» إلخ[٢].

ـ وعادات القرآن هي المرجع عند الاختلاف في المعنى.

قال ابن تيمية وهو يتكلم عن تفسير التابعين: «فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجةً على بعض، ولا على مَن بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»[٣].

فلغة القرآن: هو المعهود من عادته في ألفاظه وأسلوبه؛ بالنظر إلى نظائر اللفظ في القرآن، فيعرف معناه باطراد ذلك المعنى في تلك النظائر، وعموم المعنى لموارد استعمال ذلك اللفظ[٤].

وتبعه على هذا ابن كثير في مقدمة التفسير[٥].

فعادات القرآن من أوجه الترجيح عند المفسرين.

قال ابن القيم عند تفسيره للقَسَم في قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التَّكوير]: «وليس قول من فسَّرها بالظباء وبقر الوحش

(١) الموافقات ٤/ ٢٠٠.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٤٧٨.
(٣) مقدمة التفسير ١١٦، مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٧٠.
(٤) حاشية مقدمة التفسير لابن قاسم ١١٧.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ١٠.

بالظاهر لوجوه..»، وذكر منها: «أنه ليس بالبيِّن إقسامُ الرب تعالى بالبقر والغزلان وليس هذا عرف القرآن ولا عادته وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه؛ كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهي النفس الإنسانية، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله وهو القرآن، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء وشمسها وقمرها ونجومها...» إلخ[١].

ـ وعادات القرآن وسيلة تحمي المفسر من أن يقول على الله بلا علم، وهي مقدمة تؤدي إلى نتيجة صحيحة، وهي عاصم من الخطأ والانحراف في بيان الأسلوب القرآني، فلا يمكن أن يتكلم في القرآن من لم يعرف عادات القرآن، من خلال استقرائه، وتتبع عادته في ألفاظه ومعانيه.

فعادات القرآن علم عزيز يقوم على الاستقراء والتدبر، مع استجماع الناظر للشروط الواجب توفرها في المفسر؛ كالعلم باللغة وأصولها، وأصول الفقه، ودلالات الألفاظ، وأصول العقيدة، ونحوها، ومتى أخل الباحث ببعض هذه العلوم قَصُرَ نظرُهُ في مباحث عادات القرآن، أو أوشك أن يخرج بنتائج غير صحيحة، فبعض المفسرين مع تسليمه بعادات القرآن وأهميتها إلا أنهم خرجوا ببعض القواعد في باب الأسماء والصفات التي خالفوا فيها الحق.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطقنا فيما له فيه عرف بعرفه»[٢].

وقال القرافي: «وينبغي أن يعلم العادة في اللفظ: أن يغلب إطلاق لفظ واستعماله في معنى حتى يصير هو المتبادر من ذلك اللفظ عند الإطلاق، مع أن اللغة لا تقتضيه، فهذا هو معنى العادة في اللفظ، وهو الحقيقة العرفية»[٣].

وقال ابن تيمية: «فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون

(١) التبيان في أقسام القرآن ٧٤.
(٢) الإحكام ٣/ ٢٠.
(٣) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام ٢٢٠.

الأمر كذلك، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة، وهذه مجازاً كما أخطأ المرجئة في اسم الإيمان جعلوا لفظ الإيمان حقيقة في مجرد التصديق وتناوله للأعمال مجازاً»[١].

وقال ابن عاشور: «يحق على المفسر أن يعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه»[٢].

ـ وعادات القرآن تضبط التفسير اللغوي، وتقيده بقبول السياق له، ومراعاة غرض المتكلم به سبحانه[٣].

قال ابن تيمية: «فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة؛ كالمناسبة التي بين الرؤيا والتعبير، وإن كانت خارجة عن وجوه دلالة اللفظ، كما تفعله القرامطة والباطنية؛ إذ دلالة اللفظ على المعنى سمعية؛ فلا بد أن يكون اللفظ مستعملاً في ذلك المعنى بحيث قد دل على المعنى به، لا يكتفي في ذلك بمجرد أن يصلح وضع اللفظ لذلك المعنى؛ إذ الألفاظ التي يصلح وضعها للمعاني ولم توضع لها: لا يحصي عددها إلا الله. وهذا عند من يعتبر المناسبة بين اللفظ والمعنى كقول طائفة من أهل الكلام والبيان، وأما عند من لا يعتبر المناسبة: فكل لفظ يصلح وضعه لكل معنى؛ لا سيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى هو مستعمل فيه؛ فحمله على غير ذلك لمجرد المناسبة كذب على الله»[٤].

وقال ابن القيم: «وينبغي أن يفطن هنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله ﷻ ويُفسّر بمجرّد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون كلام به له معنى ما؛ فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن؛ فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويُفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره». وذكر أمثلة، ثم قال: «بل للقرآن عرف خاص

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٦.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.
(٣) ينظر: قواعد الترجيح ٢/ ٣٦٣.
(٤) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٧.

ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها؛ فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرّد الاحتمال النحوي والإعرابي»[١].

وقال القرطبي: «فمن لم يُحكِّم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرَّد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي»[٢].

وعليه فهذا مما يزيد في منزلة عادات القرآن؛ لأنه سيسهم في الحد من تساهل بعض الناس في تفسير ألفاظ القرآن من أي معجم لغوي بطريقة غير صحيحة، والسبب: أنه أغفل النظر إلى عادة القرآن، فهذا المصطلح سيضبط كثيراً من معاني الألفاظ.

وستكون عادات القرآن بإذن الله تعالى لبنةً جديدةً لدلالات الترجيح بين المعاني، وما فعله الشنقيطي في كتابه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن إلا من هذا النوع، والله تعالى أعلم.

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥٣٨.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٣٤.

الباب الأول

عادات القرآن في حروفه وألفاظه

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: عادات القرآن في الحروف.
- الفصل الثاني: عادات القرآن في الألفاظ.

الفصل الأول

عادات القرآن في الحروف

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اختيار الحروف.
- المبحث الثاني: نيابة بعض الحروف عن بعض.
- المبحث الثالث: التأكيد ببعض الحروف أو حذفها.

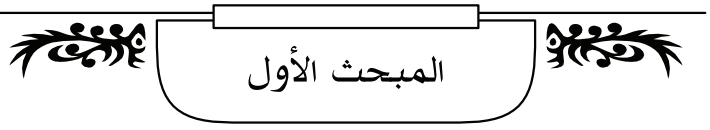

اختيار الحروف

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: اختيار الحرف المناسب للسياق.**
- **المطلب الثاني: ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة.**
- **المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لحروف الفواصل.**

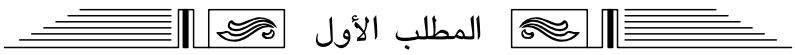

اختيار الحرف المناسب للسياق

من تأمل كتاب الله جل وعلا وجد كل حرف في مكانه المناسب فهو لا يقبل التغيير ولا التبديل، ولكل حرف معنى لا يستقيم السياق بحذفه، فاجتمع في القرآن مناسبة الحرف في مكانه مع دلالته على المعنى بأدق أسلوب وأحسن تعبير.

قال الرازي[١]: «وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة»[٢].

وعادات القرآن الدالة على هذا كثيرة منها:

أولاً: عادة القرآن في نداء الله لعباده استعمال أم الباب (يا) دون غيرها

---

(١) هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الشافعي، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، المفسِّر، إمام وقته في العلوم العقلية، من أهم مصنفاته: «مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير»، و«لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات»، و«المحصول»، مات سنة (٦٠٦هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٥/ ٣٣، طبقات السيوطي ١٠١.

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ١٣٤.

من حروف النداء التي ذكرها أهل اللغة وهي: «الهمزة»، «أيْ»، «أيا»، «هيا»، «آيْ»، «آ»، «وَا»، «يا»[١].

فكلما نادى الله عباده في كتابه كان بحرف النداء (يا) وهي أم الباب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]، وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمر]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون]، وغيرها من الآيات.

قال ابن هشام[٢]: «وهي أكثر أحرف النداء استعمالاً، ولهذا لا يقدر عند الحذف سواها نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف: ٢٩]»[٣].

وقد نص أبو حيان[٤] على هذه العادة فقال: «يا: حرف نداء، . .

---

(١) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ٧١، ١٤١، ٢١٣، ٢١٥، ٤٣١، ٤٧٢، ٥١٣.

(٢) هو: عبد الله بن يوسف بن أحمد أبو محمد جمال الدين ابن هشام، من أئمة العربية، له تصانيف كثيرة، منها: «الإعراب عن قواعد الإعراب»، «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك»، «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، مات سنة (٧٦١هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٩٣، شذرات الذهب ٦/ ١٩١.

(٣) مغني اللبيب ٣٦١، وينظر: الجنى الداني ٦١.

(٤) هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان الغرناطي أبو حيان الأندلسي الجياني النِّفْزي، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات الأندلسي، من أهم مصنفاته: «البحر المحيط»، «التذييل والتكميل في شرح =

وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها، وهي أعم حروف النداء، إذ ينادى بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب»[١].

ومجيء هذا الحرف دون غيره من حروف النداء اختيار للحرف المناسب في المكان المناسب على الحال المناسب؛ مراعاة للخفة في النطق والدلالة على معان دقيقة شاملة للمراد لا يؤديه غيره من الحروف، ومن المعاني المستفادة من استعمال هذا الحرف:

١ ـ أنها أم الباب وهي أكثر أدوات النداء استعمالاً عند الخاصة والعامة، وهي أخف حروف النداء في النطق فتبدو كأنها صوت واحد؛ لانطلاق اللسان بمدها دون استئناف عمل.

٢ ـ أن حرف النداء (يا) يستخدم لكل أنواع النداء، في نداء القريب والمتوسط والبعيد، بل لكل درجات القرب والبعد الحسي والمعنوي حقيقة أو حكماً[٢]؛ فالنداء بهذا الحرف أدق من غيره لتفاوت قرب المخلوقين من الله تعالى وبُعدهم، فإذا جاء النداء لعموم الناس ومنهم المقربون ومن ليس كذلك، أو للمؤمنين مع أن بعضهم أقرب من بعض؛ فاستخدام حرف النداء (يا) يتناول أفراد المنادى على اختلاف درجاتهم ولا يحقق ذلك غيره من الحروف.

٣ ـ ومما يلتمس في مناداة الله لعباده بحرف النداء (يا) مع أنه أقرب إليهم من حبل الوريد، مراعاة مقام الربوبية الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه، إذْ هو سبحانه العليُّ الأعلى.

٤ ـ وكذا من أوجه كثرة النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ في القرآن أن فيه أوجهاً من التأكيد وأسباباً من المبالغة، والمقام في نداءات القرآن يناسب المبالغة والتأكيد.

= التسهيل»، مات سنة (٧٤٥هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ٢/ ٢٨٧، شذرات الذهب ٦/ ١٤٥.

(١) البحر المحيط ١/ ٢٣١.

(٢) ينظر: مغني اللبيب ٣٦١.

قال الزمخشري[١]: «فإن قلت لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»[٢]، والله أعلم.

٥ ـ كما أن من عادة العرب استعمال حرف النداء (يا) لنداء القريب إشارة إلى غفلته.

قال الشاطبي[٣]: «كما أن في إثبات الحرف ـ يعني: حرف النداء ـ التنبيه على معنيين إثبات التنبيه لمن شأنه الغفلة والإعراض والغيبة، وهو العبد، والدلالة على ارتفاع شأن المنادِي وأنه منزه عن مداناة العباد، إذ هو في دنوه عالٍ، وفي علوه دانٍ، سبحانه!»[٤].

وفي آيات القرآن إشارة إلى غفلة المخلوقين عن الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون]، وبيَّن الله تعالى أن الحياة الدنيا دار لهو ولعب فقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا

(١) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري النحوي، معتزلي المذهب، جاور في مكة زمناً فلقب بجار الله، من أئمة البلاغة والعربية والآداب، من أهم مصنفاته: «الكشاف»، و«المفصل»، «أطواق الذهب»، مات سنة (٥٣٨هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٨١، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥٢.

(٢) الكشاف ١/ ١٢٢، وينظر: الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ. من أهل غرناطة، ومن أئمة المالكية، من أهم مصنفاته: «الموافقات»، «الاعتصام»، مات سنة (٧٩٠هـ)، له ترجمة في فهرس الفهارس ١/ ١٣٤، الأعلام ١/ ٧٥.

(٤) الموافقات ٢/ ١٦٤.

لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

ومن هنا يستنبط أن نداء الله تعالى لأهل الدنيا عموماً فيه تذكير وتنبيه وحث لهم على ما ينفعهم في الدنيا وينجيهم في الآخرة، والله تعالى أعلم وأحكم.

ثانياً: عادة القرآن في تاء القسم عدم دخولها على غير لفظ الجلالة.

أقسم الله تعالى في كتابه بربوبيته في سبعة مواضع:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن].

وفي المواضع السابقة أمرٌ من الله لنبيه ﷺ أن يقسم به.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر].

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج].

وسائر أقسام القرآن بآيات الله المستلزمة لذاته وصفاته، للدلالة على أنه من عظيم آياته كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصّافات]، وقوله تعالى:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥﴾ [التَّكوير]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطَّارق]، ومثل هذه الأقسام كثير في القرآن.

ولكن ورد القسم بالتاء في القرآن في تسعة مواضع:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ [يوسف].

٢ ـ قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾ [يوسف].

٣ ـ قوله جل وعلا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ [يوسف].

٤ ـ قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾ [النحل].

٦ ـ قوله سبحانه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النحل].

٧ ـ قوله جل وعلا: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧﴾ [الشعراء].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾ [الصَّافات].

قال ابن عطية[1]: «ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين

(١) هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية أبو محمد الغرناطي القاضي، أبو محمد، مفسر، فقيه، أندلسي، عارف بالأحكام والحديث، ولي قضاء المرية، من أهم مصنفاته: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، قيل: مات سنة (٥٤١هـ أو ٥٤٢هـ أو ٥٤٦هـ)، له ترجمة في: طبقات السيوطي ص٥٠، طبقات الداوودي ١/ ٢٦٥.

أسماء الله تعالى لا في غير ذلك»[١].

وقال الألوسي[٢]: «من خصائص الاسم الجليل دخول تاء القسم عليه»[٣].

وقد حُكي عن العرب دخول التاء على الرب والرحمٰن.

قال أبو حيان: «حُكي عن العرب دخولها على الرب، وعلى الرحمٰن، قالوا: ترب الكعبة، وتالرحمٰن»[٤].

ومن الأسرار المستنبطة في اختيار التاء في هذه المواضع: أن فيها زيادة معنى؛ وهو التعجب والتفخيم؛ لا يؤديه غيرها من حروف القسم، ففيها اختيار الحرف المناسب للدلالة على المعنى المناسب.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: إن الباء هي الأصل، والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب»[٥]، وهو كما قال في جميع المواضع.

ثالثاً: عادة القرآن اختيار الحرف المناسب للسياق طلباً للخفة والسهولة في النطق.

قال ابن جني[٦]: «والحروف الفرعية المستقبحة، هي فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٣.

(٢) هو: أبو الوفاء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شارك في علوم كثيرة، ومن أهم تصانيفه: «روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني»، مات سنة (١٢٧٠هـ)، له ترجمة في: معجم المؤلفين ١٢/ ١٧٥، الأعلام ٨/ ٥٣.

(٣) روح المعاني ٣/ ١١٣.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٢٧ بتصرف، وينظر: الجنى الداني في حروف المعاني ١/ ٨.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٣، البحر المحيط ٥/ ٣٢٧، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٥.

(٦) هو: عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح، من أئمة الأدب والنحو، من أهم تصانيفه: «المحتسب في شواذ القراءات»، و«سر صناعة الإعراب»، و«الخصائص»، وكان المتنبي يقول: ابن جني أعرف بشعري مني، مات سنة (٣٩٢هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٠.

ضعيفة مرذولة، غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم»[١].

وقال الرماني[٢] في تلاؤم حروف القرآن: «والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله... والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف»[٣].

بل لا تجد في كلام الله أي تنافر أو صعوبة في النطق، فليس بين الحروف القرب الشديد في المخارج أو البعد الشديد، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة القفز، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان[٤].

وبعد استقرائي القرآن للتأمل في تآلف حروفه وخفتها تبين لي:

ـ أنه لم يرد في القرآن حروف مستقبحة ولا صعبة النطق.

ـ أنه لم يرد حرف الغين مشدداً في القرآن مطلقاً، وذلك والله أعلم لما فيه من الثقل؛ مع وروده في اللغة مشدداً ولثقله يفكّون الإدغام.

قال الجوهري[٥]: «سغْسغْت الطعام: أوسعته دسماً، وسغْسغْت رأسي، إذا وضعت عليه الدهن بكفك وعصرته ليتشرب، وأصله: سغّغْته بثلاث غينات»[٦].

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/ ٥١.

(٢) هو: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني، باحث معتزلي مفسر، من كبار النحاة، له مصنفات كثيرة، من أهمها: «شرح أصول ابن السراج»، و«معاني الحروف»، و«النكت في إعجاز القرآن»، مات سنة (٣٨٤هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ١/ ٣٣١، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٥.

(٣) النكت في إعجاز القرآن ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) ينظر: النكت في إعجاز القرآن ٩٥ ـ ٩٦ بتصرف.

(٥) هو: إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر التركي الأُتْرَارِي، وأُتْرار: هي مدينة فاراب، من أئمة اللغة، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، من أشهر كتبه الصحاح، والعروض، مات سنة (٣٩٣هـ)، وقيل: (٣٩٨هـ)، له ترجمة في معجم الأدباء ٢/ ٢٦٩، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٨٢.

(٦) الصحاح ٣/ ١٠٩٠.

وقال الأزهري[١]: «غزَّ زغّ: مستعملان، . . زغّ قال الليث: زغْزغْت الرجل إذا سخرت به، وقال المفضل: الزغزغة أن تخبئ الشيء وتخفيه»[٢].

ـ ومن عجائب القرآن وإعجازه سهولة النطق لحروفه حتى مع وجود تكرار الحرف تكراراً غير مألوف كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود]، في الآية ثمانية عشر ميماً، بل فيها ثمان ميمات متوالية عند النطق بها، وذلك في قوله: ﴿أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود]، واجتماع هذه الميمات متفق عليه عند جميع القراء وعند ترتيل الآية ترتيلاً صحيحاً لا تحس بثقل أبداً، وهنا تتبين أهمية الترتيل كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢]، بل تكرار حرف الميم هنا يوحي بشدة الحالة التي كان عليها نوح حين كانت السفينة وقت غرق قومه تكابد الأمواج، والله أعلم.

ومثلها قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران]، ففي مطلع الآية اثنا عشر ميماً، ولكنها مع الترتيل كأنها ميم واحدة.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة]، ففي الآية أحد عشر قافاً وهو من أصعب الحروف نطقاً، ولو اجتمعت في كلام أقل من هذا لعسر على القارئ تحقيقها، فسبحان الله العظيم، ولا أجد تعليلاً لهذا اليسر والسهولة في النطق إلا أنه كلام الله.

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، أحد الأئمة في اللغة والأدب، شافعي المذهب، من مصنفاته: «تهذيب اللغة»، و«التفسير»، و«علل القراءات»، مات سنة (٣٧٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٤، طبقات الشافعية ٣/ ٦٣.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ٩.

المطلب الثاني

ذكر القرآن بعد الحروف المقطعة

عادة القرآن في كل سورة افتُتحت بالحروف أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته.

وهذا أمر معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة[١]، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف]، وقال جل وعلا: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصّلت].

قال ابن القيم[٢]: «ولم تذكر قط ـ الحروف المقطعة ـ في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به أو مخبراً عنه»[٣].

وقال الزركشي[٤]: «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾»[٥].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠، التحرير والتنوير ٥/ ٢٢١.

(٢) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية، فقيه حنبلي، أصولي، محدِّث، مفسِّر، من أهم مصنفاته: «زاد المعاد»، و«مدارج السالكين»، مات في دمشق سنة (٧٥١هـ)، له ترجمة في: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ٢/ ٣٨٤.

(٣) التبيان ١٢٦.

(٤) هو: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الموصلي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول، عالم في الحديث والتفسير، من مصنفاته: «شرح البخاري»، و«البرهان في علوم القرآن»، و«تفسير القرآن العظيم وصل إلى سورة مريم»، و«البحر المحيط في أصول الفقه»، مات سنة (٧٩٤هـ)، له ترجمة: الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٧، طبقات المفسرين للأدنه وي ٣٠٢، وفيه اسمه: محمد بن عبد الله بن بهادر.

(٥) البرهان ١/ ١٧٠.

وقال الشنقيطي[١]: «السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه»[٢].

فذِكْر القرآن أو الإشارة إليه بعد الحروف المقطعة دليل على أنه قُصِد بها إظهار إعجاز القرآن، وأنه الحق.

فالقرآن الكريم مركب من جنس هذه الأحرف التي يكوِّن منها العرب كلامهم، ومع ذلك عجزوا أن يصُفُّوا منها مثل هذا القرآن.

قال ابن أبي العز[٣]: «وإلى هذا ـ أي: إعجازه ـ وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور؛ أي: أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران] الآية، ﴿المٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ الآية [الأعراف]، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، وكذلك الباقي ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه؛ بل خاطبكم بلسانكم»[٤].

---

(١) هو: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر، من علماء شنقيط في موريتانيا، ولد وتعلم بها، وحج عام ١٣٦٧هـ، واستقر مدرساً في المدينة النبوية، من مؤلفاته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، و«دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب»، و«مذكرة أصول الفقه»، مات سنة (١٣٩٣هـ)، له ترجمة في: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة العدد (٣) السنة (٦) محرم ١٣٩٤هـ ص٢٨ وما بعدها. الأعلام ٦/ ٤٥.

(٢) أضواء البيان ٢/ ١٦٧.

(٣) هو: علي بن علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن الأذرُعي الأصل، المعروف بابن أبي العز، الحنفي الدمشقي، فقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، من مصنفاته: «شرح العقيدة الطحاوية»، و«التنبيه على مشكلات الهداية»، مات سنة (٧٩٢هـ)، له ترجمة في شذرات الذهب ٦/ ٣٢٦، هدية العارفين ١/ ٧٢٦.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٧٥٥.

وقال الشنقيطي: «أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو: أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها»[١].

ويستثنى من هذه العادة: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة الروم، وسورة القلم؛ أربعُ سورٍ من خمسٍ وعشرين سورة.

ففي أغلب السور المفتتحة بالحروف المقطعة التعقيب بذكر القرآن، إشارة إلى عظمته، وإلى عجز العرب عن الإتيان بمثله مع أنه بلغتهم ومُكَوَّن من هذه الحروف، إلى غير ذلك من مظاهر الإعجاز وبيان الحق والانتصار له، وهذه عادة نبه عليها العلماء في كتب علوم القرآن.

قال السيوطي[٢]: «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف]، ﴿الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الشعراء]، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [يس]، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ص]، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [غافر]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ق]»[٣]، والله تعالى أعلم.

---

(١) أضواء البيان ٢/ ١٦٦.

(٢) هو: عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الخضر بن الهمام جلال الدين السيوطي، الشافعي، إمام حافظ مؤرِّخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنَّف، منها: «الإتقان في علوم القرآن»، و«الأشباه والنظائر»، و«المزهر»، نشأ في القاهرة يتيماً، ولمَّا بلغ الأربعين اعتزل النساء وخلا بنفسه إلى أن مات سنة (٩١١هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٨/ ٥١، البدر الطالع ١/ ٢٢٩.

(٣) الإتقان ٢/ ٢٤٤.

المطلب الثالث

مراعاة المناسبة لحروف الفواصل

جاء القرآن الكريم على أحسن أسلوب وأكمل تناسق بين الجمل والآيات، ومن عاداته رعاية حروف الفواصل، فحقق جمال النظم وراعى مُشَاكَلة اللفظ.

والمراد هنا: الحرف الأخير من الآية مما يقتضيه المعنى(١).

نقل السيوطي عن ابن الصائغ(٢) الحنفي قوله: «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول، وقد تتبعت الأحكام التي وقعت آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت على نيف عن الأربعين حكماً»(٣).

فتبين لنا أن عادة القرآن مراعاة الفاصلة، وأن هذا أمر منشود في اللغة العربية.

قال الرماني: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها»(٤).

ويتفرع على هذه العادة ما يأتي:

أولاً: عادة القرآن الكريم مراعاة الخفة في حروف فواصل الآيات مع تمام المعنى.

---

(١) ينظر: الفاصلة القرآنية للحسناوي ٢٩، ورجح الجمهور تسميته فاصلة في القرآن، ومنعوا من تسميته سجعاً، وفرقوا بينهما من ناحية أن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ، أما الفاصلة فيتبع اللفظ فيها المعنى، ينظر: البرهان ١/ ٥٣، الفاصلة القرآنية ٩١ وما بعدها، وقال السيوطي: ولا يجوز تسميها قوافي إجماعاً. ينظر: الإتقان ٢/ ٢١٠.

(٢) هو: محمد بن عبد الرحمٰن بن علي شمس الدين الحنفي الزمردي، ابن الصائغ، أديب، مصري، من كتبه: «التذكرة في النحو»، و«المباني في المعاني»، و«المنهج القويم في فوائد تتعلق بالقرآن العظيم»، مات سنة (٧٧٦هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٩٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٤٨.

(٣) ينظر: الإتقان للسيوطي ٢/ ٢١٤.

(٤) النكت في إعجاز القرآن ٩٠.

عند تأمل حروف الفواصل في كتاب الله تعالى نراها سهلة ماتعة للقارئ والسامع، بحروف متناسبة متجانسة لها أثر في الصوت واللفظ والمعنى.

قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة].

وقال جل وعلا: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النَّبأ].

قال السيوطي: «كَثُر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك»(١).

وقد جاء القرآن موافقاً لحال العرب في كلامهم.

قال سيبويه(٢): «إذا ترنموا ـ يعني: العرب ـ فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت»(٣).

وهذا معنى قول الشاطبي(٤):

---

(١) الإتقان ٢/ ٢٢٧.

(٢) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، أبو بشر الملقب بسيبويه إمام أهل البصرة في العربية، لزم الخليل فَفَاقَه، وسيبويه بالفارسية: رائحة التفاح، من أهم مصنفاته: «الكتاب في النحو»، مات سنة (١٨٠هـ)، وقيل غيرها، وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٣، العبر في خبر من غبر ١/ ٢٧٨.

(٣) الكتاب ٤/ ٢٠٤.

(٤) هو: القاسم بن فِيرُّهْ بن خلف بن أحمد الرُّعينيّ الشاطبي الأندلسي أبو محمد، ولد أعمى، إمام كبير، قرأ القراءات وهو صغير، حافظ للحديث، فقيه شافعي، بصير بالعربية، من مصنفاته: «منظومة حرز الأماني» و«وجه التهاني» من أشهر ما كتب في القراءات، و«ناظمة الزهر في عد الآي»، مات سنة (٥٩٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٧١، غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٠.

وجاء بحرف المد الاكثر منهما ولا فرق بين الياء والواو فى السبر[١]

يعني: الفواصل، قال شارحه: «وحكمة ذلك وجود التمكن من التطريب كما قال سيبويه...»[٢].

ـ قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ [المزمل].

قال أبو السعود[٣]: «تبتيلاً مكان تبتلاً مع ما فيه من رعاية الفواصل»[٤].

بل زيدت ألف الإطلاق في الفواصل مراعاة لما قبلها وما بعدها وتحقيقاً للسهولة في القراءة والتناسق في الصوت.

ـ ومن الأمثلة: سورة الأحزاب؛ بُنِيَت مُعظَم فواصلها على الألف فجيء بألف الإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [الأحزاب]، فزيد على النون ألف لمناسبة نهاية الفواصل، وقبل هذه الآية: مسطوراً، غليظاً، أليماً، بصيراً، وبعدها: شديداً، غروراً، فراراً.. إلخ.

ـ وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾ [الأحزاب]، وقبلها ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾ [الأحزاب].

قال ابن عاشور[٥]: «والألف في آخر قوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ لرعاية الفواصل

---

(١) ناظمة الزهر للشاطبي بيت رقم (٣٨).
(٢) شرح المخللاتي لناظمة الزهر ٥١.
(٣) هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي أبو السعود الحنفي، صنف: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم في التفسير»، وله حاشية على تفسير الكشاف، مات سنة (٩٨٢هـ)، له ترجمة في: طبقات الأدنه وي ٣٩٨، شذرات الذهب ٨/ ٣٩٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٢٢.
(٥) هو: محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين، شيخ جامع الزيتونة بتونس، من مصنفاته: «التحرير والتنوير في التفسير»، و«مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«موجز البلاغة»، و«أصول التقدم في الإسلام»، مات سنة (١٣٩٣هـ)، له ترجمة في: الأعلام ٦/ ١٧٤، تراجم لتسعة من الأعلام، د. محمد الحمد ١٥٣.

التي بنيت عليها السورة فإنها بنيت على فاصلة الألف وهي ألف الإطلاق»[١].

ـ ومن الأمثلة: صرف الممنوع من الصرف رعايةً لخفة الفواصل[٢]؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾ [الإنسان]؛ لأن قبلها في الفواصل: سروراً، حريراً، زمهريراً، تذليلاً، وبعدها: تقديراً، زنجبيلاً، سلسبيلا.. إلخ.

قال الزمخشري: «﴿قَوَارِيرَا۠﴾ وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق؛ لأنه فاصلة»[٣].

والمتأمل لكتاب الله تعالى في جميع الفواصل يجد أن حروف الفواصل تتبع المعنى؛ فيتكامل المعنى برعاية الفواصل، وهذا أعلى الفصاحة، فالفاصلة القرآنية المتماثلة لم تأت لغرض لفظي فحسب، ولكنها تأتي لغرض معنوي دقيق يحتمه سياق الكلام وتقتضيه الحِكْمة الإلٰـهَية، ويجتمع معه جمال اللفظ وتناسق الفواصل، فهي تخدم اللفظ والمعنى في آن واحد.

ـ وقول الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر].

قال القاسمي[٤]: «أي: يولون أدبارهم المؤمنين بالله عند انهزامهم، وإفراد ﴿ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ لإرادة الجنس، أو رعاية الفاصلة»[٥]، وهو هنا قد أفاد المعنى مع رعاية الفواصل.

بل لا تحسن المحافظة على الفواصل إلا مع بقاء المعاني، وأما إهمال المعاني والاهتمام بتحسين اللفظ دون النظر إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٣٧.
(٢) ينظر: البرهان ١/ ٦٦.
(٣) الكشاف: ٤/ ٦٧٢.
(٤) هو: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعاً من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق، سلفي العقيدة، من مصنفاته: «محاسن التأويل في التفسير»، و«إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، و«دلائل التوحيد»، له ترجمة في: فهرس الفهارس ١/ ٤٤٧، الأعلام ٢/ ١٣٥.
(٥) تفسير القاسمي ٩/ ٩٥.

ثانياً: عادة القرآن مجيء أغلب حروف الفواصل إما متماثلة أو متقاربة.

قال السيوطي: «حروف الفواصل إما متماثلة وإما متقاربة.

فالأولى مثل: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطُّور]، والثاني: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق]، قال الإمام فخر الدين وغيره: وفواصل القرآن لا تخرج عن هذين القسمين بل تنحصر في المتماثلة والمتقاربة»[(١)].

وعند التأمل فإن التماثل والتقارب هو الأغلب في حروف الفواصل ولا يكاد أحدهما يزيد على الآخر، لكن الملاحظ أن الفواصل المتماثلة أكثر في السور المكية كسورة النازعات، وعبس، والانفطار، والأعلى، على حين أن المتقاربة أكثر في السور المدنية كسورة البقرة وآل عمران، والمائدة[(٢)].

أما الفاصلة المنفردة وهي قليلة فهي التي لم تتماثل حروفها ولم تتقارب كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار]، فواصل هذه الآيات وما بعدها في النون والميم تتماثل مع نفسها وتتقارب مع بعض، لكن حرف الكاف جاء منفرداً من بين الحروف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضُّحى]، وكذا آخر سورة العلق.

ولعل من حِكَم ذلك شد الذهن لأمر مهم وعظيم، أو الإشارة إلى الانتهاء في بعض الفواصل[(٣)]، والله أعلم.

ولا يخفى أن مبنى الفواصل على الوقف فإن كل الفواصل تتماثل بالوقف على السكون.

ولهذا يقول السيوطي: «مبنى الفواصل على الوقف، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس كقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٢٧، وينظر: تفسير الرازي ١/ ١١٩، البرهان ١/ ٧٢.
(٢) ينظر: الفاصلة في القرآن ١٤٧.
(٣) ينظر: المرجع السابق ١٤٨.

خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصَّافات] مع قوله: ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ [الصَّافات]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصَّافات]، وقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر] مع قوله: ﴿قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢]، و﴿وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣]، و﴿مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١]، مع قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: ١٢]»[1]، والله تعالى أعلم.

(١) الإتقان ٢/٢٢٦.

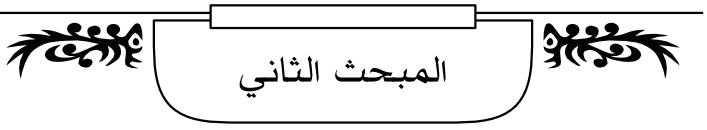

نيابة بعض الحروف عن بعض

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: نيابة حروف الجر عن بعض.**
- **المطلب الثاني: نيابة حروف النداء عن بعض.**
- **المطلب الثالث: نيابة حروف العطف عن بعض.**

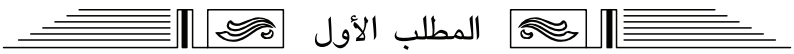

نيابة حروف الجر عن بعض

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وأسلوبهم في الكلام، والمتأمل فيه يقف على عادة من عاداته وهي نيابة حروف الجر عن بعض[(١)]؛ فنجد تعدي كثيرٍ من الأفعال التي وردت في القرآن إلى مفعولها بحرف جر غير الحرف الذي تتعدى به في أصل الوضع اللغوي[(٢)].

وعادة نيابة الحروف عن بعض فيما إذا كان الحرف في معنى الآخر، أو مردوداً إليه بوجه ما، أو العامل فيه بمعنى العامل في الآخر.

أما مع عدم الرجوع إليه أو إلى العامل فلا يصح بوجه[(٣)].

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٩٨، وينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ٤٣٩، وهي مسألة خلافية. ينظر للاستزادة: التضمين النحوي في القرآن للدكتور محمد نديم فاضل، تناوب حروف الجر في لغة القرآن للدكتور محمد حسن عواد.

(٢) من طريق استقراء معاجم اللغة، والنظر في الكتب المؤلفة في معاني الحروف.

(٣) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ٤٣٢.

وقد تتابع العلماء على بيان هذه المعاني فعقد ابن قتيبة[١] في كتابه «تأويل مشكل القرآن» باباً خاصاً لحروف الصفات التي يقع بعضها موقع بعض[٢]، وذهب إلى مثل ذلك ابن سيده[٣] وعقد لها فصلاً في كتابه (المخصص) سماه: «دخول بعض الصفات على بعض»[٤]، وعمل ابن السّيد البَطَلْيَوسي[٥] عمل سابقيه فخصص باباً لذلك في كتابه «الاقتضاب» سماه: «دخول بعض الصفات مكان بعض»[٦]، وغير ذلك مما هو في تضاعيف كتب اللغة والنحو[٧].

وأمثلة هذا كثير منها:

ـ قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]؛ أي: من علم الله، (الباء) بمعنى (من)[٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمر الله،

---

(١) هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد النحوي اللغوي، صنف غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن، مات سنة (٢٧٦هـ)، وقيل غيرها، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦، طبقات الداوودي ١/ ٢٥١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٩٨.

(٣) هو: علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده أبو الحسن المرسي، إمام في اللغة وآدابها، كان ضريراً، وكذلك أبوه، نبغ في آداب اللغة ومفرداتها، فصنف: «المخصص»، و«المحكم والمحيط الأعظم»، و«شرح ما أشكل من شعر المتنبي»، مات سنة (٤٥٨هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٠، الأعلام ٤/ ٢٦٣.

(٤) المخصص ٤/ ٢٣٧.

(٥) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد أبو محمد البَطَلْيَوسي ـ بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الواو وبعدها سين مهملة ـ النحوي، اللغوي، من مصنفاته: «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»، و«الأسباب الموجبة لاختلاف الأئمة»، مات سنة (٥٢١هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٩٦، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٣٣.

(٦) الاقتضاب ١/ ٣٣٨.

(٧) ينظر: رصف المباني ٢٢٣، مغني اللبيب ١١٠.

(٨) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٣٠٢.

(من) بمعنى (الباء)، ومن تأتي للسبب في كلام العرب[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج]؛ أي: عن عذاب، (الباء) بمعنى (عن)[٢].

وهذه العادة لها أثر بارز في أداء المعاني، وبعد استقراء كلام المفسرين الأوائل واللغويين السابقين في بيان الآيات التي استُعمل فيها حرف الجر في موضع يُستعمل فيه حرفٌ آخر عادةً؛ تبيَّن أنهم لم يلتزموا منهجاً محدداً في توجيه هذه الأساليب في جميع المواضع، فأحياناً يقولون بتضمين الفعل معنى فعل آخر[٣]، ويقولون بتناوب حروف الجر في أحيان أُخر[٤].

فالإمام الطبري[٥] مع تفسيره بالتضمين في مواضع منها قوله:

(وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] يقول جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ولا تصرف عيناك عن هؤلاء الذين أمرتك يا محمد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تجاوزهم إليه، وأصله من قولهم: عدوت ذلك، فأنا أعدوه: إذا جاوزته»[٦].

وقوله: «ويعني بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، يُرْوَى بها ويُنتفع»[٧].

إلا أنه لم يقدمه على القول بتناوب الحروف؛ فقد قال في تفسير قوله

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٣٠١، البحر المحيط ٥/٣٠٣، الجنى الداني ٣١٤، البرهان ٤/ ٤٢٠.

(٢) ينظر: رصف المباني ٢٢٢.

(٣) ينظر: الخصائص لابن جني ٢/ ٧، ٨.

(٤) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٢/ ٩١، ٥/ ٤٢، معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٦، معاني القرآن للأخفش الأوسط ١/ ٤٦، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٩٨، التبيان للعكبري ١/ ٢٩٠.

(٥) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، أبو جعفر، الإمام المفسر المؤرخ، كان مجتهداً لا يقلد أحداً، من أشهر مصنفاته: «كتاب التفسير»، و«أخبار الأمم والملوك»، مات سنة (٣١٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ١/ ٤٥٦، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٧.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٣٩.

تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران].

(فتأويل الكلام: ومن أهل الكتاب الذي إنْ تأمنه، يا محمد، على عظيم من المال كثير، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه، ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنْك فيه فلا يؤدِّه إليك، إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة، و[الباء] في قوله: ﴿بِدِينَارٍ﴾ و[عَلَى] يتعاقبان في هذا الموضع، كما يقال: «مررت به، ومررت عليه»»[(١)].

وقال أيضاً: «قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني به: على جذوع النخل، وكما قالوا: [فعلت كذا في عهد كذا، وعلى عهد كذا]، بمعنى واحد»[(٢)].

بل جمع بين التفسير بالتضمين للفعل والتضمين للحرف في مواضع كثيرة، حيث يقول:

«وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، يقول: ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذّبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، فأغرقناهم أجمعين»[(٣)].

وقال الطبري أيضاً: «القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: ولا تخلِطوا أموالهم ـ يعني: أموال اليتامى بأموالكم ـ فتأكلوها مع أموالكم»[(٤)]، ومِثْله فَعَل الزمخشري فقد فسر بهذا وهذا[(٥)].

وكذا ابن عطية فقد وصف تضمين الفعل بأنه قول الحذاق[(٦)]، ومع ذلك يقول: «التعدية باللام في ضمنها تعد بالباء يفهم من المعنى»[(٧)].

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٥١٩، ٥٢٠.
(٢) تفسير الطبري ٢/ ٤١٢.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤.
(٤) تفسير الطبري ٧/ ٥٢٨.
(٥) ينظر: الكشاف ٢/ ٦٧٠، ٤/ ٢٢٧.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٦.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٧٤.

وكذا أبو حيان الأندلسي مع قوله: «إن تضمين الأفعال أولى من تضمين الحروف»[١]، إلا أنه فسر بتناوب الحروف[٢]، وكذا ابن كثير[٣]، وغيرهم.

بل إن ابن تيمية[٤] مع قوله بالتضمين للأفعال كما في الفتاوى: «والعرب تُضَمِّنُ الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض»[٥].

فسر بتناوب الحروف في مواضع حيث يقول: «قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ يعني: على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها، وكذلك قوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ يعني: على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: فوقها عليها»[٦].

وكذلك ابن القيم حيث يقول عن تضمين الأفعال: «هذه طريقة إمام الصناعة ـ سيبويه ـ رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن»[٧].

ومع هذا فسَّر (في) بمعنى (على) حيث يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) البحر المحيط ١/ ٢٣٤.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٦/ ١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧٠، ٣/ ٤٩، وهو الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ الدمشقي الشافعي، حافظ مؤرِّخ فقيه، له مصنفات كثيرة، منها: «البداية والنهاية»، و«تفسير القرآن العظيم»، و«جامع المسانيد»، مات سنة (٧٧٤هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ١/ ١١١، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.
(٤) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين ابن تيمية، ذكر في ابن حجر في الدرر الكامنة ١/ ١٨٥: أن تصانيفه ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، من أشهر مصنفاته: «منهاج السُّنَّة»، و«درء تعارض العقل والنقل»، و«الرد على المنطقيين»، و«الاستقامة»، مات سنة (٧٢٨هـ)، له ترجمة في: الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٩، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥.
(٥) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٤٢.
(٦) مجموع الفتاوى ٥/ ٦٨.
(٧) بدائع الفوائد ٢/ ٢١.

[الملك: ١٦]، معناه: من على السماء؛ يعني على العرش، وقد تكون: (في) بمعنى (على) ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ أي: على الأرض، وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل»[(١)].

مما يدل على أن السياق له أثر كبير في التفسير وأن القولين قائمان ولكل قولٍ وجاهته، وإن كان القول بتضمين الأفعال أوجه وأسلم من الاعتراضات على القول بتناوب حروف الجر، ولكن في القرآن مواضع لا يمكن فيها تضمين الفعل، فلا يمكن القول بقاعدة مطردة بل يقال: إن الأمر واسع، والأولى حمل الآية على المعنيين إن أفادت ذلك مع عدم التعسف في التأويل أو تضمين الحروف ما لا تحتمل عند أهل اللغة.

قال المبرد[(٢)]: «وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض، إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع، قال الله جل ذكره: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على... وقال الله جل وعز: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ [الطُّور: ٣٨]؛ أي: عليه، وقال تبارك وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمر الله»[(٣)].

وقال ابن السَرَّاج[(٤)]: «واعلم: أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني فمن ذلك: الباء تقول: فلان بمكة وفي مكة...»

---

(١) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٣/ ١٩.

(٢) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، البصري النحوي، أبو العباس المعروف بالمبرد، إمام العربية ببغداد في زمنه، له تصانيف كثيرة، من أشهرها: «الكامل»، و«المقتضب»، و«إعراب القرآن»، مات سنة (٢٨٦هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣١٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٧٧.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ٣/ ٧٣.

(٤) هو: محمد بن السري بن سهل، البغدادي النحوي، أبو بكر ابن السراج، أحد أئمة الأدب والعربية، كان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً، من مصنفاته: «الأصول في النحو»، و«شرح كتاب سيبويه»، و«الشعر والشعراء»، مات سنة (٣١٦هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٩، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٥.

إلى أن قال: «فهذه حقيقة تعاقب حروف الخفض فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز»(١).

وجامع الكلام في المسألة ما قاله ابن السّيد البَطَلْيَوْسي: «هذا الباب أجازه قوم من النحويين أكثرهم من الكوفيين، ومنعه قوم أكثرهم من البصريين، وفي القولين نظر؛ لأن من أجاز دون شرط وتقييد، لزمه أن يجيز سرت إلى زيد، وهو يريد مع زيد قياساً على قولهم: «إن فلاناً لظريف عاقل إلى حسب ثاقب»؛ أي: مع حسب، ولزمه أن يجيز: زيد في عمرو؛ أي: مع عمرو... هذه المسائل لا يجيزها من يجيز إبدال الحروف، ومن منع ذلك على الإطلاق لزمه أن يتعسف في التأويل لكثير مما ورد؛ لأن في هذا الباب أشياء كثيرة يبعد تأويلها على غير البدل»(٢).

وخلاصة القول:

ـ أن من عادات القرآن: [تعدي كثيرٍ من الأفعال التي وردت في القرآن إلى مفعولها بحرف جر غير الحرف الذي تتعدى به في أصل الوضع اللغوي]، وقد أبان علماء اللغة والتفسير معاني هذه الحروف، وأن هذه عادة العرب، وقد جاء القرآن بلغتهم ومرجعاً لها.

ـ ومن خلال هذه العادة؛ نشأت مسألة: هل هذا الأسلوب تناوب بين الحروف؟ أو تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بهذا الحرف حسبما سُمِع عن العرب؟(٣).

ـ تجدُرُ الإشارة إلى أن القول بالتضمين فيه بلاغة إعطاء الفعل معنى فعلين، كما قال الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]: «وإنما عدى بعن، لتضمين عدا معنى نبا وعلا، في قولك: نَبَت عنه عينُه، وعَلَت عنه عينُه: إذا اقتحمته ولم تعْلَق به. فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عيناك، أو لا تعل

(١) الأصول في النحو ١/ ٤١٤ ـ ٤١٥.
(٢) ينظر: الاقتضاب ١/ ٣٤٠.
(٣) ينظر: الخصائص لابن جني ٢/ ٧، ٨.

عيناك عنهم؟ قلت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم؟، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]؛ أي: ولا تضموها إليها آكلين لها»[(١)]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

نيابة حروف النداء عن بعض

حروف النداء التي ذكرها أهل اللغة وهي: «الهمزة»، «أيْ»، «أيا»، «هيا»، «آيْ»، «آ»، «وَا»، «يا»[(٢)].

وقد تستعمل أدوات النداء التي للقريب لنداء البعيد، لمعنى من المعاني، كأن يريد الإشارة إلى أنَّ هذا البعيد في جسده هو قريب إلى قلبه ونفسه وحاضر في ذهنه، أو أنه لشدة استماعه وسرعة استجابته كأنه قريب، فهو لا يحتاج أن ينادى بأدوات نداء البعيد.

وقد تستعمل أدوات النداء التي للبعيد لنداء القريب، للدلالة على معنى من المعاني، إشارة إلى علو مرتبته وقدره، فناسب نداؤه بنداء البعيد في العلو، أو إشارة إلى انحطاط منزلته، فناسب كذلك نداؤه بنداء البعيد في السفل، أو إشارة إلى غفلة المنادى فهو بمنزلة البعيد لحاجته إلى زيادة التنبيه، أو إشارة إلى شدة حاجته إليه فيمد صوته بالنداء كالمستغيث، فناسب استعمال أداوت نداء البعيد لما فيها من مد الصوت، ونحو هذا كما هي عادة العرب[(٣)].

وزعم بعضهم أن في نداء الرب بـ(يا) إشارة إلى احتقار العبد نفسه والإقرار بالتقصير[(٤)]، فالتناوب في استعمال حروف النداء وتحديد المعنى

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٧٠.
(٢) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ٧١، ١٤١، ٢١٣، ٢١٥، ٤٣١، ٤٧٢، ٥١٣.
(٣) ينظر: الكشاف ١/ ١٢١، الجنى الداني ٣٥٤ ـ ٣٥٥، روح المعاني ١/ ١٨١.
(٤) ينظر: الكشاف ١/ ١٢١، اللباب في علوم القرآن ١/ ٤٠٧.

يكون حسب السياق لتضم حروف النداء جميع معاني القرب أو البعد مسافة أو حكماً[١].

وعادة القرآن نيابة أم الباب (يا) عن جميع أدوات النداء، لتعم جميع المعاني، فهي في غاية الدقة لبيان حال المنادى، من حيث القرب والبعد الحسي والمعنوي، مما سبقت الإشارة إليه في مباحث اختيار الحرف المناسب.

ومما يؤكد نيابتها عن جميع الأدوات أنها إذا حذفت أداة النداء في القرآن فلا يقدر غير (يا)؛ لكونه أصلاً لحروف النداء ومشتَرَكاً لنداء القريب والبعيد[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا...﴾ الآية [يوسف: ٢٩]؛ أي: يا يوسف[٣]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

نيابة حروف العطف عن بعض

حروف العطف لها الأثر الكبير في دلالات الآيات، والربط بين الجمل والكلمات، ولذا بيَّن علماء اللغة أن لكل حرف دلالة عامة تختص به.

وقبل البداية في بيان العادة أشير إلى أهم حروف العطف التي تقع النيابة بينها ومعانيها عند أهل اللغة:

❐ الأول: [الواو] وهو أصل حروف العطف:

قال المبرِّد: «وكل بابٍ فأصله شيءٌ واحدٌ، ثم تدخل عليه دواخل؛ لاجتماعها في المعنى... والواو أحق بالعطف»[٤].

ومعناها إشراك الثاني فيما دخل فيه الأول وليس فيها دليل على أيهما

(١) ينظر: رصف المباني ٥١٣.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١/٢٢٨.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/٣٥٧٧.
(٤) المقتضب ٧٠.

كان أولاً نحو قول الله ﷻ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران] والركوع قبل السجود[١].

يقول سيبويه: «قولك: مررتُ بعمروٍ وزيد، وإنما جئت بالواو لتضم الآخر إلى الأول وتجمعهما، وليس فيه دليل على أنَّ أحدهما قبل الآخر»[٢].

ويقول الرضي[٣]: «فقوله: [فالواو للجمع مطلقاً]: معنى المطلق أنه يحتمل أن يكون حصل من كليهما في زمان واحد، وأن يكون حصل من زيد أولاً، وأن يكون حصل من عمرو أولاً، فهذه ثلاثة احتمالات عقلية، لا دليل في الواو على شيء منها، هذا مذهب جميع البصريين والكوفيين»[٤].

❐ الثاني: [الفاء] ومعناها أن الثاني بعد الأول وأن الأمر بينهما قريبٌ:

يقول سيبويه في التمييز بين الواو والفاء: «والفاء وهي تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت الواو غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض، وذلك قولك: مررتُ بعمروٍ فزيدٍ فخالدٍ، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقرو أحدهما بعد الآخر»[٥].

❐ الثالث: [ثُمَّ] وهي مثل الفاء إلا أنها أشد تراخياً وتجيء لتبين أن بين الثاني والأول مهلة:

يقول المرادي[٦]: «[ثُمَّ] حرف عطف يشرك في الحكم، ويفيد الترتيب

---

(١) الأصول في النحو ٢/ ٥٥.
(٢) الكتاب ٤/ ٢١٦.
(٣) هو: محمد بن الحسن الرضي السمنائي النجفي المعروف بالرضي، وبالشارح، وبنجم الأئمة، ونجم الدين، عالم بالعربية، من أشهر مصنفاته: «الوافية في شرح الكافية» لابن الحاجب في النحو، و«شرح مقدمة ابن الحاجب» وهي المسماة بالشافية في علم الصرف، مات سنة (٦٨٦هـ)، له ترجمة في: روضات الجنات ٢٨٦، الأعلام ٦/ ٨٦.
(٤) شرح الكافية ٤/ ٣٨٢.
(٥) الكتاب ٤/ ٢١٧.
(٦) هو: الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المولد المغربي الإقامة والشهرة، الآسفي النحوي اللغوي الفقيه، بدر الدين المعروف بابن أم قاسم، مفسر أديب من مصنفاته: «تفسير القرآن»، و«الجني الداني في حروف المعاني»، و«شرح الشاطبية»، و«شرح الألفية»، مات يوم عيد الفطر سنة (٧٤٩هـ)، له ترجمة في: غاية =

بمهلة؛ فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة»[١].

قال ابن القيم: «لا غرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن في الكلام، فهذه ثُمَّ حرف عطف، ولفظها كلفظ الثَّم، والثَّمُّ هو زمُّ الشيء بعضه إلى بعض... وأصله من ثَمَمْتُ البيتَ: إذا كانت فيه فُرَج فَسُدَّ بالثَّمَام»[٢].

ويتضح معناهما الأصلي أكثر من خلال آيات سورة عبس حيث يقول الله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس] العطف بالفاء للدلالة على التعاقب والتقارب، ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس]؛ أي: أخرجه من بطن أمه[٣] ولذا جاء العطف بثم للدلالة على التراخي ووجود الفاصل بين الحدثين؛ من كونه نطفة إلى ولادته، وهو مدة بقاء الجنين في بطن أمه، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس] عطف بثم للدلالة على التراخي بين خروجه من بطن أمه إلى موته، بخلاف المدة بين موته وقبره فإنها يسيرة ولذا جاء العطف بالفاء إشارة إليه، ولما كان بين الموت والبعث برزخاً فاصلاً جاء التعقيب بثُم ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس][٤].

يقول سيبويه مفرقاً بين هذه الأحرف الثلاثة: «فإذا قلت: مررتُ برجل

= النهاية ١/ ٢٢٧، والدرر الكامنة ٢/ ٣٢.

(١) الجنى الداني ٤٢٦.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٩٩، ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٦٩. قال الجوهري: «وثممت الشيء أثُمُّه بالضم ثمَّاً، إذا أصلحته ورممته بالثَّمام» الصحاح ٦/ ١٥٩.

(٣) روي عن مجاهد: أن المراد بالسبيل طريق الحق والباطل، أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٢٣، وقال الطبري: «وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسَّره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب؛ لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده» ٢٤/ ٢٢٤.

(٤) ينظر: رصف المباني ص٢٤٩، وما ذكرته في معنى الفاء، وثم هو مذهب الجمهور وما أوهم خلاف ذلك تأولوه، ينظر: الجنى الداني ٤٢٦، مع العلم بأن التراخي أمر نسبي يُقَدَّر في كل موضع بقدره.

راكب وذاهب، استحقهما؛ لا لأن الركوب قبل الذهاب، ومنه: مررتُ برجل راكب فذاهب استحقهما، إلا أنه بَيَّنَ أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلاً به، ومنه: مررتُ برجل راكب ثم ذاهب، فبيَّنَ أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة وجعله غير متصل به، فصَيَّرَه على حِدَة»[(١)].

❐ الرابع: [أَوْ] إما أن تكون:

أ ـ لأحد الشيئين بغير تعيينه عند شك المتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون].

ب ـ أو قصده أحدهما، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾ [المائدة: ٨٩].

ج ـ أو إباحة[(٢)] كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: ٧٤][(٣)].

وإذا دَخَلَت عليها لا الناهية امتنع فعل الجميع كقول الله ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان] إذ المعنى لا تطع أحدهما[(٤)].

وهكذا اعتنى علماء اللغة بتحديد المعنى الأصلي لحروف العطف فمنها ما يفيد الاشتراك، وأخرى للتعقيب، وثالثة للتعقيب مع التراخي، وغيرها، ومن هنا تظهر أهمية معرفة عادة القرآن في نيابة بعض حروف العطف عن بعض.

---

(١) الكتاب ١/ ٤٢٩.

(٢) الإباحة: هي حرية المخاطب في اختيار أحد المتعاطفين أو اختيارهما معاً، فالمراد: الإباحة بحسب العقل، أو العرف في أي وقت، وعند أي قوم لا الإباحة الشرعية. ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٣/ ٢٠٠.

(٣) ينظر: رصف المباني ص٢١٠، مغني اللبيب ٧٣.

(٤) مغني اللبيب ٧٤، الأصول في النحو ٢/ ٥٥، ٥٦.

فعادة القرآن نيابة حروف العطف عن بعض حسب دلالة السياق القرآني.

فالمتأمل لحروف العطف في القرآن يرى الدقة البالغة في اختيار مواضعها من خلال التناوب فيما بينها باستعمال أحدها بمعنى الآخر، وكذا عند الانتقال من حرف لآخر في سياق واحد ليدل دلالة واضحة ـ مع تناوبهما ـ أن بينهما فرقاً دقيقاً لمن تأمل فيها، وأن بلاغة القرآن لا تضاهيها بلاغة.

١ ـ فمن الأمثلة مجيءُ الفاء بمعنى ثم:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزُّمر: ٧].

في آية سورة الزمر حرف العطف [الفاء] وفي آية سورة الأنعام [ثُمَّ] مع أن ظاهر السياق واحد، مما يدل على التناوب بين الحرفين مع دقة في دلالة المعنى.

ويؤيد هذا قول بعض العلماء: إن الفاء فيها نوع من التراخي، وكل شيء بحسبه، وإن لم يكن كما في [ثُمَّ] تماماً(١).

قال الزركشي: «نص الفارسي في الإيضاح على أن ثم أشد تراخياً من الفاء فدل على أن الفاء لها تراخ، وكذا ذكر غيره من المتقدمين ولم يدع أنها للتعقيب إلا المتأخرون»(٢).

وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

هذه الفاءات التي في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وفي: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ وفي: ﴿فَكَسَوْنَا﴾ كلها بمعنى ثم؛ لتراخي معطوفاتها.

قال الزركشي في معاني الفاء: «وتجيء للمهلة كـ «ثم»؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، ولا شك أن بينها وسائط.

---

(١) ينظر: مغني اللبيب ١٦٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٩٧.

وكقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى] فإن بين الإخراج والغثاء وسائط»[١].

٢ ـ وتأتي ثم بمعنى الواو:

ومن أقوال العلماء التي ذَكَرَت أمثلةً لهذا المعنى:

ـ قال السمرقندي[٢]: «قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] [ثُمَّ] بمعنى العطف؛ يعني: وأورثنا الكتاب»[٣].

وقال البغوي: «﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ويجوز أن يكون [ثُمَّ] بمعنى [الواو]؛ أي: وأورثنا؛ كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧]؛ أي: وكان من الذين آمنوا..»[٤].

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف].

قال أبو حيان: «ثم بمعنى الواو فلم ترتّب ويكون الترتيب بين الخلق والتصوير أو تكون ثُمَّ في ﴿ثُمَّ قُلۡنَا﴾ للترتيب في الإخبار لا في الزمان وهذا أسهل محمل في الآية»[٥].

وقال الأخفش[٦]: «﴿ثُمَّ﴾ في معنى الواو»[٧].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٩٥، وينظر: مغني اللبيب ١٦٨.

(٢) هو: نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث الملقب بإمام الهدى، من أئمة الحنفية الزهاد، له مصنفات نفيسة منها: «التفسير»، وكتاب «النوازل في الفقه»، و«تنبيه الغافلين»، مات سنة (٣٩٣هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنفية ٢/ ١٩٦، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٢، طبقات الداوودي ٢/ ٣٤٦.

(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦٢٣، وينظر: ٤/ ٦٢١. (٥) البحر المحيط ٥/ ١٦.

(٦) هو: علي بن سليمان، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الصغير النحوي، له تصانيف منها: «معاني القرآن»، «شرح سيبويه»، مات سنة (٣١٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٠، شذرات الذهب ٢/ ٢٧٠.

(٧) معاني القرآن ٢/ ٢٩٤، وقال النحاس: «وهذا القول خطأ على مذهب أهل النظر من النحويين، ولا يجوز أن تكون ثم بمعنى الواو لاختلاف معنييهما»، وذكر قول مجاهد =

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

قال القرطبي[١]: «﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]؛ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة، قال الفراء: [ثُمَّ] هنا بمعنى [الواو]؛ أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار، وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم، قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين»[٢].

وقال القرطبي: «﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصَّافات] قال أبو عبيدة: يجوز أن تكون [ثُمَّ] بمعنى [الواو]»[٣].

قال السيوطي في [ثُمَّ]: «وذكر أهل التفسير أنه في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: بقاؤه على أصله، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [١٦٤]، وفي الأعراف: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، وفي فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٣٢]، وهو كثير في القرآن.

والثاني: بمعنى الواو، ومنه قوله تعالى في يونس: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [٤٦]، وفي القيامة: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

والثالث: وقوعه زائداً، ومنه قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا

= أن المعنى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم في ظهر آدم وقال: «وهذا أحسن الأقوال يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق ثم كان السجود لآدم بعدُ؛ ويقوي هذا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] معاني القرآن ٣/ ١٢، وينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١٢٣.

(١) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، صنف التفسير المشهور بجامع أحكام القرآن، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، مات سنة (٦٧١هـ)، طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٩، طبقات الداوودي ٢/ ٦٥، شذرات الذهب ٥/ ٢٣٥.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٨٨.